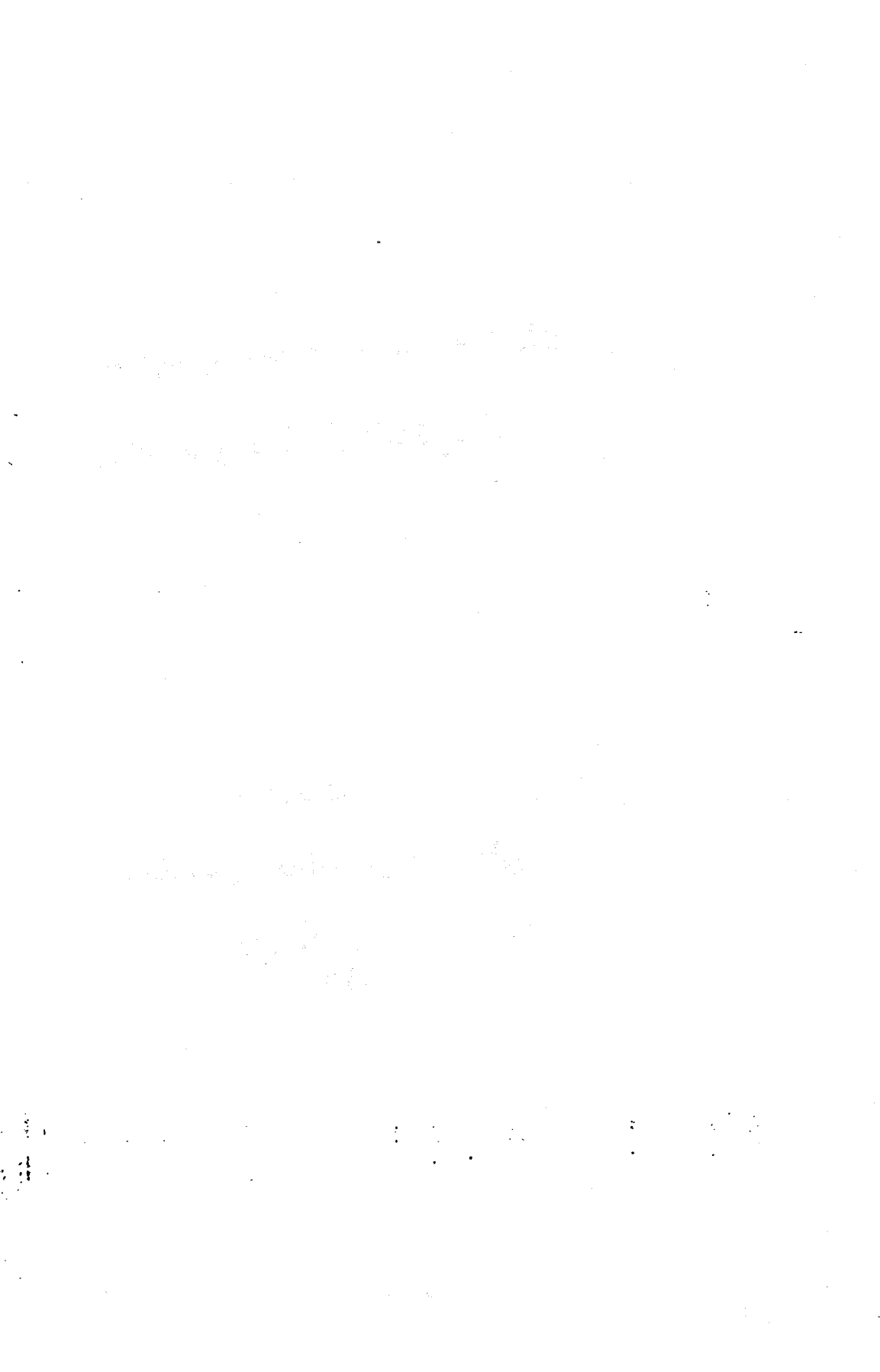


الخطاب في قصص الصعاليك
دراسة وصفية تحليلية

الدكتور

محمد سمير عبد المعطي الديسبي

مدرس الأدب والنقد
بجامعة الأزهر



الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاة ،

ويعد ..

لقد اتخذت هذه الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي أداة لتحديد الهدف من دراسة الخطاب في قصص الصعاليك للوصول إلى غاية ذات اتجاهين:

الاتجاه الأول: يتمثل في اختيار مجموعة من قصص الصعاليك وردت في تراثنا العربي القديم متناثرة في بطون أمهات كتب الأدب والتاريخ والسير والمعاجم... لم تحظ بكتاب يجمعها ولم تتم دراستها على الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت شعر الصعاليك وشخصياتهم من جوانب عدة فنية وموضوعية وتاريخية.

الاتجاه الثاني : توظيف الخطاب وآلياته وصيغه المتعددة السردية والوصفية والحوارية للكشف عن القيمة الفنية والموضوعية لقصص الصعاليك لتقديم رؤية متكاملة عن سمات هذه الفئة التي تبنت فكراً متمرداً على سلطة القبيلة وأيدولوجياتها وصنعت خطاباً مضاداً لخطابها السلطوي فانفردت بسمات خاصة تميزها عن غيرها.

حددت الدراسة مادة البحث متمثلة في قصص الصعاليك من العصر الجاهلي حتى آخر عهد بني أمية وذلك لتبني الصعاليك هذه الفترة فكراً أيدولوجياً واحداً ومختلفاً عن أيدولوجية من أطلق عليهم من قبل المؤرخين مسمى صعاليك في العصور التالية لهذه الفترة لاختلاف ظروفهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وللوصول لهذه الغاية وأبعادها اتبعت الدراسة الطريقة التالية:

- تحديد مادة الدراسة من العصر الجاهلي حتى آخر عهد بني أمية لتبني الصعاليك في هذه الفترة مفهوماً للصعلكة محدداً ومختلفاً عنه في العصور التالية.
- اختيار مجموعة من قصص الصعاليك المتناثرة في بطون أمهات كتب الأدب والأخبار والسير واللغة والمعاجم والأمثال.....
- دراسة وصفية لمفهوم الصعلكة وحياة الصعاليك ونشأتهم وأيدولوجياتهم.
- دراسة وصفية للخطاب في الثقافة العربية وتحديد مفهوم تسير عليه الدراسة.
- دراسة تحليلية لصيغ الخطاب في قصص الصعاليك .
- دراسة وصفية تحليلية لمفهوم السرد والراوي ووظيفته وأنواع السرد وشروط كل منها مع تطبيقات على نماذج من قصص الصعاليك.

- دراسة تحليلية لمفهوم العرض وأنواعه متمثلة في الوصف ووظائفه والحوار وأنواعه ووظائفه.

وسعت هذه الدراسة لتحقيق الإجابة عن الأسئلة التالية:

- هل يستطيع الخطاب إظهار سمات قصص الصعاليك؟
- ما مدى تأثير الرواية الشفوية على تشكيل الخطاب؟
- هل للراوي أثر في صيغ الخطاب؟
- هل كان لحياة الصعاليك المتمردة أثر على صيغ الخطاب المتعددة؟
- ما مدى تأثير الزمان والمكان على صيغ الخطاب؟

هذه الافتراضيات التي تقوم عليها الدراسة تحقق الإجابة عليها الأهداف المنشودة

منها:

وقد واجه البحث العديد من المشاكل والصعوبات تمثلت فيما يأتي:

- عدم وجود كتاب يجمع قصص الصعاليك فهي متناثرة في بطون أمهات كتب الأدب والأخبار والتاريخ واللغة والمعاجم ودواوين الشعراء وشروحها ويشكل جمعها والاختيار منها صعوبة على الباحث خاصة وأن بعض هذه الكتب لم يتم إعادة طبعها.
- طبيعة القصص ولغتها وأسلوبها وكثرة غريبها مما يشكل صعوبة لدارسها.
- تعدد تعريفات الخطاب وتباينها واختلافها تبعاً لاختلاف وتباين مناهج المنظرين والدارسين له وتوجهات كل منهم.
- صعوبة الحصول على مصادر التراث .
- صعوبة البحث في الموضوع لندرة الدراسات العربية.

وبالله تعالى التوفيق والسداد

تأصيل الخطاب

تأصيل الخطاب في الثقافة العربية:

لابد من النظر إلى هذه الكلمة في بعض معاجم اللغة العربية والقرآن الكريم وكتب الفكر واللغة والأدب.

ورد في معجم اللسان لابن منظور (ت ٧١١هـ) ما يساعدنا في الرجوع بالكلمة إلى أصلها اللغوي على امتداد زمني كبير ، كما يجنبنا هذا المعجم مشقة البحث عن دلالة هذا المصطلح في تراثنا الضخم.

وقد ورد في مادة (خ . ط . ب) الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام ، وقد خاطبته بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان، وفصل الخطاب أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده.....

والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن^(١) . وفي كتاب الكلبيات " الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام ، إفهام من هو أهل للفهم . والكلام الذي لا يقصد به إفهام فإنه لا يسمى خطاباً"^(٢).

أما في القرآن الكريم فقد وردت صيغة خطب تسع مرات ، وصيغة خطاب ثلاث مرات في قوله تعالى : (فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)^(٣) وفي قوله تعالى : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ)^(٤) وفي قوله تعالى : (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً)^(٥) ، ويقترن لفظ الخطاب في الآيات الثلاثة السابقة بالعزة والشدة والبأس والحكمة وبالعظمة والجلال فيخرج بذلك عن المفهوم اللغوي المتدرج تحت مراجعة الكلام ، أو الكلام الذي يقصد به الإفهام ليرتقي إلى معانٍ سامية بين العزة والحكمة وفصل الخطاب.

(١) لسان العرب. ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم (دائرة الفكر - دار صادر ، بيروت) خطب.

(٢) كتاب الكلبيات. الكفوي : أبو البقاء الحسيني (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ت ١٩٩٢م) ص ٤١٩.

(٣) سورة ص : الآية (٢٣)

(٤) سورة ص : الآية (٢٠)

(٥) سورة النبا الآية (٣٧)

ويورد الزمخشري تفسيراً لفصل الخطاب بقوله " إنه الكلام المبين الدان على المقصود بلا التباس . وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل ، أي أن يحكم بالبينه^(١) وبهذا يكون الخطاب متصفاً بالبيان والتبيان وتجنب الإبهام والغموض واللبس فخلق بذلك تلازماً بين مصطلحي كلام وخطاب ، وهذا ما ذهب إليه الآمدي الذي خص الكلام بمعنى الخطاب.^(٢)

أما التهانوي فقد ميز بين الكلام عامة والخطاب بوصفه نوعاً من الكلام ، وعرف الخطاب بحسب أصول اللغة على أنه " توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"^(٣) وأخرج بهذا التعريف لفظ الخطاب من كل ما يعتمد على الحركة والإيحاء والإشارة كوسائل للإفهام ، كما أخرج من الخطاب كل كلام لا يقصد به في الأصل إفهام السامع.^(٤)

مفهوم الخطاب عن بعض العرب المحدثين:

اختلفت مفاهيم الخطاب عن العرب المحدثين باختلاف توجهاتهم ومدى تأثرهم بالدراسات العربية التي انتقلت إلى الأدب العربي حاملة معها فروقات واضحة بين الثقافتين وأخرى في فهم الخطاب وتعريفه ، عرف عبدالسلام المسدي الخطاب على أنه: (الكلام أو المقال ، وعده كيانه أفرزته علاقات معينة بموجبه التأمّت أجزاءه)^(٥).

أما سعيد يقطين عنده : (هو الطريقة التي تقدم بها المادة الحكائية في الرواية . وقد تكون المادة واحدة لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولة كتابتها ونظمها)^(٦).

أما محمد مفتاح فالخطاب عنده (حدث مرتبط بزمان ومكان محدد وقع وهو على خلاف الحدث التاريخي لا يمكن أن يعاد...) ويتميز الخطاب من منظور مفتاح بالانغلاق ، أي

(١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . الزمخشري : أبو القاسم محمد بن عمر ،

تح : محمد مرسى عامر (دار المصنف ، القاهرة) ٨٠/١ .

(٢) المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين الآمدي : سيف الدين أبو الحسن علي . تحقيق : عبد الأمير الأسم (بغداد ، ت ١٩٨٥م) ص ٣٨٥ .

(٣) كشف اصطلاحات الفنون . التهانوي : محمد علي الفاروقي . تح : لطفي عبد البديع (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ت ١٩٧٢م) ١٧٥/٢ .

(٤) المرجع السابق

(٥) الأسلوبية والأسلوب . عبدالسلام المسدي (الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ط ٣) ص ١١٦ .

(٦) تحليل الخطاب الشعري . استرجية النصاص . سعيد يقطين (المركز الثقافي العربي ، بيروت . الدار البيضاء ، ط ٣ ، ت ١٩٩٢م) ص ١٢ .

له بداية ونهاية رغم تداوليته بمعنى أنه وليد أحداث تاريخية واجتماعية ولغوية تتوالد منه أحداث أخرى^(١).

وتبعاً لهذا فالخطاب ليس جامداً بل هو متميز ومتحول تبعاً لكل قارئ وهو متواصل مع قارئه لاحتوائه خصائص نفسية واجتماعية وحضارية.

أما نور الدين السد فهو يعرف الخطاب على أنه (خلق لغة من لغة) ، فوسم الخطاب على أنه لغة تمتاز بالتحول والتجدد ، فهي لغة لم تنشأ من عدم ، بل هي وليدة لغة أخرى هي لغة الحياة والمعنى والموقف ... فلا وجود للغة أولى دون اللغة الثانية وهي لغة ثانية على خلاف الأولى (لغة / خطاب)^(٢). من خلال تعريفات الخطاب السابقة نلاحظ توفر مخرجات القصة فيها ، وخاصة عند محمد مفتاح ونور الدين السد فتظهر من خلال تعريفهما ملامح الخطاب القصصي كالتالي:

- وجود مخاطب ومخاطب ومادة خطاب.
- يرتبط بزمان ومكان محدد.
- يتميز بالانغلاق - بداية ونهاية - .
- احتوائه أحداث تاريخية واجتماعية.
- هو خلق لغة من لغة.

واقع الصعاليك وقصصهم

تمثل حياة الصعاليك انفصالاً عن المجتمع القبلي السائد في العصر الجاهلي بكل تفاصيله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وقد أسهم بإحداث هذا الانعصال الطرفان على السواء القبيلة والصعاليك . والقبيلة بنظامها الطبقي المبني على فكرة الدم ونقاء اللون والعرق ، والصعاليك بثورتهم وتمردهم ضد هذا النظام الجائر الذي فرض عليهم الحياة على هامش القبيلة وخارج حدود هرمها الذي يجمع شيخها وأبناءها الخالص ومن دخل معهم بالولاء.

(١) تحليل الخطاب الشعري . استراجية التناس . محمد مفتاح (بيروت ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي

العربي ، ط ٣ ، ت ١٩٩٣ م) ص ١٢٠ .

(٢) الأسلوبية وتحليل الخطاب الشعري . نور الدين السيد . (دار هومة : الجزائر) ٦٨/٢ .

وقد عانى هؤلاء الصعاليك بسبب هذا التهميش والظلم والضميم وأسر العبودية ونزولها . ولم تشفع لهم مخالطة الدم بالزواج كعروة بن الورد^(١) . ولا طول المعاشة كالشنفري^(٢) ، لأن الدم لم يكن دماً قُبلياً خالصاً ، وطول المعاشة لم ترق بصاحبها لتُخرجه من عبادة العبودية إلى منزلة أفراد القبيلة وأبنائها . وظلوا كما هم خارج الشرائع والأعراف والتقاليد القبلية محرومين من كل شيء .

وفي ظل هذا الحرمان صور السليك بن سلكة أسباب ثورته فقال في دعاء أثر عنه "اللهم إنك تهيء ما شئت لما شئت ، اللهم إني لو كنت ضعيفاً كنت عبداً ، ولو كنت امرأة كنت أمة ، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة أما الهيبة فلا هيبة"^(٣) .

ونذكر عروة بن الورد الأسباب والدوافع لهذه الثورة حين قال مخاطباً زوجته :

رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ	دَعَيْتُ لِلْفَقْرِ أَسْعَى فَأِنِّي
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ	وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ	وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ	وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ

(١) عروة بن الورد بن يزيد بن عبدالله بن ناشب بن هويم بن قطيعة عبس ، من شعراء الصعاليك بل هو أبو الصعاليك وكان من أسباب خروجه اضطهاد أبيه وتفضيل أخيه الأكبر واحتقار قومه له لدنو منزلة أمه في نسبها .

معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي د. غيف عبدالرحمن (دار المناهل ، بيروت ، ط ١ ، ت ١٩٩٤م) ص ١٦٤ .

شرح ديوان الحماسة "أبو تمام" التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي (علم الكتب ، بيروت) ٧/١ . الأغاني . أبو فرج الأصبهاني (٣٥٦ هـ ٥٧٦م) (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ت ١٤٠٧ هـ ، ط ١ ، ت ١٩٨٦م) ٣/٨٠-٨٤ .

(٢) الشنفري الأزدي ، عاش ونشأ في بني سلامان من بني فهم الذين أسروه ، وهو طفل صغير ، فلما شب عرف بقصة أسره ، حلف أن يقتل منهم رجل لأنهم استعبدوه عرف عنه أنه من أشهر عدائي الصعاليك وأكثرهم دهاء وجرأة ، مات قتيلاً على يد أحد بني سلامان . معجم الشعراء ، ص ١٦٧ .

للمزيد انظر شعراء النصرانية قبل الإسلام ، جمع وتنسيق : لويس شيخو (دار المشرق ، بيروت ، ط ٤ ، ت ١٩٩١م) ص ٨٨٣ .

(٣) الأغاني ٢٠/٢٩٠ .

وَيُلْفِي ذُو الْغَنَى وَلَهُ جَلالٌ يَكادُ فُؤادُ صَاحِبِهِ يَظِيرُ^(١)

هذا هو شأن الأفراد الذين ظلموا فإنه أيضاً شأن قبائل لحق الفقر والعوز بأغلب أفرادها ؛ لقسوة البيئة المحيطة بهم^(٢). فتكوّن فيها طبقتان ، طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ، وانقسمت هذه الطبقة الأخيرة إلى قسمين : قسم ارتضى الفقر والعيش في كنف الأغنياء والقيام بخدمتهم وقسم رفض الذل والهوان ورفض الفقر والعوز فاندفع للتمرد والثورة ، وانضم إلى ذويان العرب وشكل معهم حلقة قوية حاربت حتى قبائلها . يصور ذلك حبيب الأعم الذي دفعه الفقر والألم للتصعلك فيقول:

وَذَكَرْتُ أَهْلِي بِالْعِرا ءِ وَحَاجَةَ الشُّعْبِ التَّوَالِبِ
المُصْرِمِينَ مِنَ التَّلَا دِ اللَّامِحِينَ إِلَى الْأَقْصَارِ
وَبِجَانِبِي نَعْمَانُ قُل تِ أَلَنْ يَبْلَغَنِي مَآرِبِ^(٣)

ثار هؤلاء جميعاً على هذا النظام الجائر فقبولت ثورتهم من قبائلهم بالخلع والطرْد ، لذلك بحثوا عن مجتمع بديل يفرض نفسه على المجتمع القبلي بالقوة.

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فَأِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ^(٤)

صنعوا هذا المجتمع ليخرجوا من ظلم القبلية إلى عدالة الإنسانية ، ومن ذل العبودية إلى سماء الحرية حيث يعيش الإنسان محفوظ الكرامة مهاب الجانب . وحرصوا على تحقيق ما فقدوه داخل مجتمعاتهم القبلية من الغنى والعدل والمساواة ، فسعوا كما ذكر الدكتور يوسف خليل^(٥) إلى تحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية والتوازن بين طبقتين متباعدتين من

(١) ديواننا عروة والسموأل تقديم كرم البستاني (دار صادر ، بيروت ، ط د ، ت ١٣٨٤ هـ ، ١٩٥٤ م) ص ٤٥.

للمزيد انظر :

شعراء النصرانية ، ص ٨٨٨.

(٢) شعر الهذليين في مصر الجاهلي والإسلامي د. أحمد كمال زكي (دار الكتاب العربي ، العربي ، القاهرة ،

١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ص ١٠

(٣) ديوان الهذليين نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (الدار القومية ، القاهرة ، ت ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٥ م)

ص ٨١/٢-٨٢

(٤) ديواننا عروة والسموأل ص ٥.

طبقات المجتمع ، طبقة الأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعفاء...^(١) لذا كان مجتمعهم في معظمه اشتراكيا يكفل فيه القوي حق الضعيف والغني حق الفقير ، متخذين من اللصوصية وقطع الطريق والفتك بالأغنياء - خاصة - وسيلة لتحقيق أهدافهم.

وأطلق على هذه الفئة مسميات عدة تدل على حالتهم من جانب وطبيعة نشاطهم من جانب آخر فهم الصعاليك مشتقة من دلالة الفقر الذي هو سمتهم ودلالة الانعتاق الذي هو وضعهم ، ودلالة القوة التي هي وسيلتهم ، كما تحمل دلالة الاستقلالية والاعتداد بالذات التي هي صفتهم.^(٢)

كما أنهم هم الذويان مشتقة من الذناب^(٣) لنشاطهم وطبيعة عملهم وغدرهم بالظالمين المغتصبين لحقوق العامة والضعفاء كما أنهم اللصوص والخلاء والفتاك والسطار... كل هذه المسميات ومدلولاتها كانت أدوات ووسائل لتحقيق ذواتهم . وإن اتخذوا في العصور التالية للعصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام وعصر بني أمية مفهوما آخر ، ومسميات أخرى كالعتارين... فخرجوا عن مفهوم الصلعة في بدء ظهورها.

كانت هذه السمات والمدلولات - الفقر الثروة والتمرد ، القوة ، اللصوصية - صفات مشتركة تقاسمها أفراد هذا المجتمع إلى جانب سمات فردية أسهمت في تباين شخصياتهم وتعدد أدوارهم داخل مجتمعهم فكان منهم عروة الصعاليك الذي حقق فكرة التكافل الاجتماعي ومبادئ المجتمع الاشتراكي من خلال فعله ، فانتزع هذه التسمية وانفرد بهذا اللقب فقد قيل:

كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة ثم يحضر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم - إما مريض يبرا من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته - خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيبا، حتى إذا أخصب الناس والبنوا وذهبت السنة الحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمته إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك^(٤).

وكان منهم سليك المقاتب وهو سليك بن سلكه ، نُعت فقيلا:

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . د يوسف خليف (دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ت ١٩٦٦م) ص ١٥٥.

(٢) اللسان / صلك

(٣) اللسان / ذاب

(٤) الأغاني ٦٦/٢١

كان له بأس وشدة.

وقيل :

" وكان أدل الناس بالأرض ، وأجودهم عدواً على رجليه لا تعلق به الخيل "

وكان منهم تأبط شراً تحمل تسميته معاني القوة والجرأة ، ونسجت حوله مجموعة من الحكايات المتصلة بالجن والغول والحيات والأفاعي ، وعنه قيل :

"انه أعدى ذي رجلين ، وذي ساقين ، وذي عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الطباء فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته، حتى يأخذه، فيذبجه بسيفه، ثم يشويه فيأكله^(١). وسئل بما تغلب الرجال يا ثابت ... قال باسمي إنما ساعة ما ألقى الرجل أنا تأبط شراً فينخلع قلبه حتى أنال مما أردت^(٢) .

في ظل هذا المجتمع نُسجت قصص وحكايات لامست الواقع حيناً ، وحلقت في سماء الخيال والأسطورة حيناً آخر ، فقد كان منهم العداء الذي يسبق الخيل ، والقوي الذي يصارع الجن والغول. وبهذا الواقع والخيال تتحقق في قصص الصعاليك طرفاً طيف القصة^(٣) . : التاريخ بأحداثه من جانب والخيال من جانب آخر.

ردد هؤلاء الصعاليك قصصهم ومغامراتهم ويطولاتهم في أشعارهم ، وتغنوا بها في فخر وإعجاب مما شكل مادة قصصية خصبة للرواة ، وقد أشار يوسف خليف إلى ذلك بقوله : "إن الصعاليك هم رواة القصة الشعرية في الأدب العربي"^(٤). وخلفت كتب الأدب بهذا النوع من القصص لارتباطه بالشعر وشروحه شارك في صنع هذه القصص الإخباريون والرواة بالرواية الشفهية أولاً ثم التدوين ، فأسقطا على هذه النصوص القصصية شيئاً من ذواتهم وشيئاً آخر من العصر الذي كتبت فيه لذلك نلاحظ أن لهذه القصص مستويين :

المستوى الأول : مستوى القصة كتاريخ ينقل لنا الحدث والواقع ضمن نطاق الحوافز التي تدفع حركة الفعل في الشخصيات أو في العلاقات فيما بينها.

(١) السابق ٤٦٤/٢٠ .

(٢) السابق ٨٨/٢١ .

(٣) عناصر القصة - روبرت شولتر - ترجمة : محمود منقذ الهاشمي (طلاسي للدراسات والترجمة والنشر ، ت ١٩٨٨ م) ص ٢٣ .

(٤) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ص ١٥٧ .

المستوى الثاني : مستوى الرواية أي كلام له وجود مادي تناقلته الرواة مشافهة حتى تم جمعه وتدوينه^(١).

مصادر قصص الصعاليك

شارك في تدوين قصص الصعاليك وأخبارهم الكتاب والأدباء والمؤرخون والفقهاء أيضاً لغايات أدبية أو اجتماعية أو فقهية . ذكرهم محمد بن إسحاق الوراق النديم في كتابه "الفهرست" وقد فرغ من تأليفه سنة ٣٧٧ هـ فكانت على النحو التالي:

- كتاب السرقة وقطاع الطرق لمحمد بن حسن المتوفي سنة ١٨٩ هـ^(٢).
- كتاب الحزب واللصوص للقيط المحاربي المتوفي سنة ١٩٠ هـ^(٣).
- كتاب لصوص العرب لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفي سنة ٢١٠ هـ^(٤).
- كتاب الراحة ومنافع العيارة لأبي العنيس الصميري المتوفي سنة ٢٥٦ هـ^(٥).
- كتاب السرقة لأبي سليمان داود علي الأصفهاني المتوفي سنة ٢٧٠ هـ^(٦).
- كتاب الحيل للمدائني المتوفي سنة ٢٥٥ هـ^(٧).
- كتاب الحيل للخصاف ، أحمد بن عمرو والشيباني^(٨).
- كتاب حيل اللصوص وكتاب الفتيان وكتاب المكدين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ^(٩).
- كتاب أشعار اللصوص لأبي سعيد السكري (الحسن بن الحسين) المتوفي سنة ٢٥٧ هـ^(١٠).

(١) عناصر القصة : ص ٢٧ .

(٢) الفهرست . ابن النديم : محمد بن إسحاق الوراق - طبعة مصورة عن طبعة فلوجل (مكتبة خياط ،

بيروت) ص ٢٠٤ .

(٣) السابق : ص ٩٤ .

(٤) السابق : ص ٥٤ .

(٥) السابق : ص ١٥٢ .

(٦) السابق : ص ٢١ .

(٧) السابق : ص ١٠٤ .

(٨) السابق : ص ٢٠٦ .

(٩) دائرة المعارف الإسلامية ، زكي خورشيد (دار الكتاب المصري ، القاهرة) مادة الجاحظ.

(١٠) الفهرست : ص ٨٧ .

ولكن جميع هذه الكتب والمصادر فُقدت ولم يبق منها إلا إشارات تحيل إلى هذا الكتاب أو ذاك ، من ذلك ما ذكر في الكتاب التالية:

- خزانة الأدب فقد أشار البغدادي في مقدمة كتابه هذا إلى اعتماده على كتاب حيل اللصوص للجاحظ وأشار أيضاً لنقله عن كتاب اللصوص للسكري في حديثه عن عبيد الله بن الحر^(١).
- الحيوان وقد ذكر فيه الجاحظ عند حديثه عن أحد اللصوص قوله : " ولو سمعت بقصصه في كتاب اللصوص ، علمت أنه بعيد عن الكذب والتزويد وقد رأيته وجالسته"^(٢).
- الفرج بعد الشدة وقد أفرد فيه القاضي التنوخي باباً قائماً بذاته - الحادي عشر - لقصص اللصوص . وجعل عنوانه متوافقاً مع أهداف الكتاب وموضوعه " ومن امتحن من اللصوص بسرقة أو قطع ، فعوض من الاتجاع والخلق بأجل صنع"^(٣).
- يتيمة الدهر وفيه يروي الثعالبي أقاصيص وأحاديث ذات طابع أدبي حين يتحدث عن الشعراء اللصوص^(٤).
- الأذكىاء وأخبارهم أفرد فيه ابن الجوزي فصلاً تحدث فيه عن أذكىاء اللصوص في الباب الثامن والعشرين وقد جعل عنوانه " في ذكر طرف من فطن المتلصصين"^(٥).
- محاضرات الأدباء ، أشار الراغب الأصفهاني إلى كتاب اللصوص للجاحظ^(٦) في الفصل الذي كتب فيه عن التلصص وما يجري مجراه.

ويضياح هذه الكتب وفقدتها تفرقت المادة القصصية بين مصادر اللغة وقواعدها وغريبها ، وكتب الأدب والأمثال والأخبار والتاريخ والتراجم فقد وجد كل صاحب كتاب منهم في

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، البغدادي : عبدالقادر بن عمر (١٠٣ - ١٠٩٣هـ) (دار صادر ،

بيروت) ص ٢٢-١٩/٢

(٢) الحيوان . الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (٢١٣ - ٢٥٥هـ) دار صعب ، بيروت ، ط ٢ ،

ت ١٩٧٨م) ص ٢٩٩/٢.

(٣) الفرج بعد الشدة . التنوخي : القاضي أبو علي الحسن بن علي ش : عبود الشالجي (دار صادر ،

بيروت ، ت ١٩٧٨م) ٢٧/٤-٢٦٧.

(٤) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - الثعالبي : عبد الملك بن محمد . تح : محمد محي الدين

عبد الحميد (القاهرة ، ط ٢ ، ت ١٩٥٦م) ٣/٣٢٣.

(٥) الأذكىاء وأخبارهم . ابن الجوزي (القاهرة ، ط د) ص ١٨٦-٢٠٢.

(٦) محاضرات الأدباء . الأصفهاني : الرغب (دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ت ١٩٦١م) ص ٣/١٨٩-١٩٤.

هذه القصص والأخبار مقصده من تأليف كتابه ووجد الباحث عن قصص الصعاليك وأخبارهم في الكتب ضالته . وهي:

- معاجم اللغة كالصاحح للجوهري ، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ، ولسان العرب لابن منظور حيث وردت بعض قصص الصعاليك وأخبارهم في مادة صعلك وذأب وغرب....
- كتب قواعد اللغة كخزانة الأدب للبغدادى فقد ساق فيه قصص الصعاليك وأخبارهم عند ذكر شواهد القواعد اللغوية من شعر الصعاليك الذي يمثل مادة ثرية لغريب اللغة .
- كتب الأخبار الأدبية ومنها الكامل للمبرد ، والأمالى للقالى.
- كتب الأمثال كمعجم الأمثال للميداني الذي ضم أمثالا للصعاليك وقصة كل مثل.
- كتاب الأغاني وهو من أهم الكتب في الحديث عن الصعاليك وقصصهم وأشعارهم - وإن لم يكن أدقها - فقد ألع أبو الفرج الأصبهاني بطرائف الأخبار وغريبها وفي قصص الصعاليك مادة ثرية تشبع ولعه وتغري بالاستطراد والإفاضة في هذه القصص والأخبار.
- كتابي أشعار الهذليين ، وديوان الهذليين فقد ضما أخبار صعاليك هذيل كابي خراش والأعلم وصخر الهذلي وما جرى بينهم وبين عدوهم تأبط شراً من قصص وأخبار.
- كتب المختارات من الشعر ، كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ، والمفضليات للضبي وفيها نجد بعضاً من قصص الصعاليك عند ذكر أشعارهم.
- كتب التراجم كالشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمريزاني نجد تراجم لعدد من شعراء الصعاليك وقليلاً من أخبارهم وبعض قصصهم.
- معجمات الأماكن والبلدان كمعجم ما استعجم ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي. وقد تطرقت هذه المعاجم لقصص الصعاليك وأخبارهم وأشعارهم لاشتمالها على الأماكن نظراً لكثرة تنقلهم وارتدادهم لأماكن نائية.
- ديوان عروة بن الورد وأهم من جمعه ابن السكيت وله شرح عليه ، أورد فيه ترجمة عروة وأخباره والحوادث التي ارتبط بها بعض شعره وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة دواوين في مجلد واحد.
- ديوان الشنفرى وقد طبع طبعة غير وافية لعدم استيعابها كل ما في النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية.

الخطاب عند الصعاليك

أفرزت الحياة الجاهلية بقسوتها ونظامها القبلي الطبقي خطاباً سلطوياً ، هو نتاج فقدان الأمن في هذه البيئة الصحراوية القاسية ؛ لذلك كان الاعتماد على القوة والسلطة وكان إظهارها أساس حياتهم . وهذا ما يشهد به واقعهم الذي صورته أشعارهم وقصصهم وأمثالهم.

هذا الخطاب السلطوي المحتمي بقوة الجماعة المبنية على نقاء الدم واللون وسلامة العرق ، أنتج خطاباً مضاداً هو خطاب الثورة والتمرد الذي تتبناه جماعة الصعاليك ، وتعبسه قصصهم المستمدة من طبيعة حياتهم التي كانت مادة خصبة للرواة والإخباريين والشرح.... توافرت في هذه المادة ملامح الخطاب القصصي من جوانب عدة ، نستمدّها من تعريف كل من محمد مفتاح ونور الدين السد ، وهما التعريفان اللذان تبنتهما الدراسة سابقاً وذلك للأسباب التالية:

- توفر أركان الخطاب الثلاثة في هذه القصص على النحو التالي:-
مخاطب : هو الراوي فقد اعتمدت هذه القصص على المتشافهة قبل مرحلة التدوين.
مخاطب : المروي له .
خطاب : القصة .
 - تتميز هذه القصص باستقلال بعضها عن بعض لوجود بداية ونهاية لكل قصة ، على الرغم من ارتباطها جميعها بفكرة الصعلكة
 - ترتبط هذه القصص بحقبة تاريخية متشابهة تمتد من العصر الجاهلي إلى نهاية عهد بني أمية وإن كان بعض المؤرخين يرى أنها تمتد إلى عصور متأخرة بمسميات متعددة.
 - ترتبط هذه القصص بنظام يعتمد على النظام الطبقي السلطوي الذي كان سبباً في ظهورها ومعاناتها النفسية والاجتماعية ، فقبل الصعلكة عبودية وظلم وذل وبعد الصعلكة غربة وعزلة بسبب الثورة على الظلم والعبودية.
- لذا انفرد الخطاب في قصص الصعاليك بسمات تميزه عن غيره من الخطابات في هذه الفترة إذ هو نتاج الثورة والتمرد على الخطاب السلطوي النابع من القبيلة ، هو خطاب فئة استمدت قوتها من ضعفها لا من القبيلة ونسبها وترددت هذه القصص قبل تدوينها على ألسنة الرواة حاملة تنوعاً واضحاً في صيغتها الخطابية.

صيغ الخطاب:

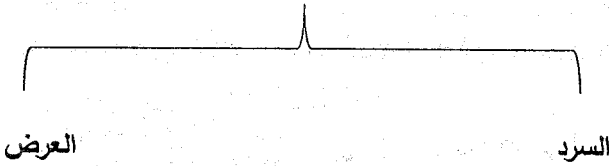
تعني صيغة الخطاب الطريقة التي يتم بواسطتها تبليغ المحكي وإضفاء الطابع التخيلي على النص القصصي^(١). وعلى الرغم من تعدد صيغ الخطاب وتداخلها إلا أنه يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين هما:

• السرد

• العرض

ويناط السرد بالراوي على حين يناط العرض بالشخصيات . وإذا كان الأول منهما - السرد - يرتبط بالحركة والفعل وتأثيرهما على الزمن وتغييرهما له ، فإن الثاني منهما - العرض - يرتبط بالثبات ، إذ يتشكل منه وصف المكان ومظهر الشخصيات وطبائعها والحوار بينهما^(٢). ويظهر تأثير الثبات على الزمن من خلال تبطينه وإيقافه . وبذلك يصبح لكل حكي وجهتان . وجهة السرد وتشكل الأفعال والأحداث ، ووجهة العرض وتشكل الأشياء والشخصيات . وتلتحم الوجهتان مكونة صيغ الخطاب .

صيغ الخطاب



وتتسم قصص الصعاليك بسيادة أسلوب السرد على أسلوب العرض ؛ وذلك لاعتماد الراوي على الاختزال والإجمال وعدم ميله إلى التفصيل والإطالة ، وهي طبيعة العربي عامة ، ومع ذلك نلاحظ أن هذه القصص لا تقوم على الأسلوب السردى الخالص ولا الوصف أو الحوار الخالص ، وإنما تتداخل هذه الخطابات مكونة صيغاً للخطاب .

مفهوم السرد

تكشف معاجم اللغة ومنها اللسان في مادة (س ر د) عن دلالة الكلمة على النسخ والتتابع يقال : درع مسرودة ، ومسرودة بالتشديد فقليل : سردها نسجها - وسرد الصوم تابعه ،

(١) جمالية النص الروائي - مقارنة تحليلية لرواية لعبة النسيان - أحمد فرشوخ (دار الأمان ، الرباط ، ط ١

ت ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م) ص ٥٩ .

(٢) السابق

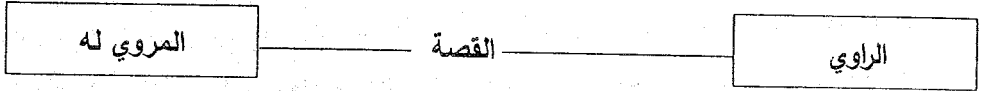
وقولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد أي : متتابعة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب^(١). ويتفق هذا المعنى المعجمي مع تعريفات السرد في الدراسات الحديثة التي ترى فيه نسيجا من الأحداث تتابع تتابعا سببيا ويتعلق بالانتقال من حالة إلى حالة أخرى^(٢).

ويتخذ السرد من اللغة وسيلة له . فهو يحكي السلوك الإنساني والحركات والأفعال والأماكن ، ويقوم الحكي على دعامتين أساسيتين هما :

أولا : أن يحوي قصة ما ، تضم أحداثا معينة.

ثانيا : أن يعين الطريقة التي تحكى بها القصة وتسمى سردا.

الذلك يفترض وجود شخص يحكي وشخص تُحكى له ، أي وجود تواصل بين طرف أول ويدعى راويا أو ساردا وطرف ثان يدعى مرويا له أو قارنا^(٣).



وقد مرت قصص الصعاليك بمرحلة الرواية الشفوية ، وكانت رواياتهم أقرب إلى المادة الإخبارية في صنيع أقرب للاحتمال أو التصور حتى عندما وصلت مرحلة التدوين والكتابة نقلت على أنها تاريخ تسجيلي . لذلك دخلها الوصف ليسجل به هذا التاريخ ، وبما أنها تهتم بالأفعال فهي سرديات^(٤). وقبل الولوج إلى أنواع السرديات لابد من الوقوف على الراوي والكشف عن وظائفه في السرد.

السارد أو الراوي : يصنع الكاتب عادة روايا لقصصه من خياله ، وينسجه بقلمه ويترك له وظيفة الحكي والإخبار والتفسير والتعليق ... ولكن الراوي في قصص الصعاليك ، ورغم أنه قام بهذه الوظائف ، لا يعد من صنيعة الكاتب القصصي وإنما هو مؤرخ اقتطع من التاريخ مادة قصصية بأبعاده الواقعية وسياقاتها التاريخية ، عكست هذه القصص والأخبار صورة واضحة لنمو الأشكال الشفوية المتحولة إلى نص مكتوب مبعثر في حقول شتى وسط

(١) اللسان / سرد

(٢) قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشفهية سعيد يقطين (المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

ط ١ ، ت ١٩٩٧م) ص ١٤.

(٣) بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي د. حميد لحمداني (المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

ط ٣ ، ت ٢٠٠٠م) ص ٤٥.

(٤) قال الراوي ص ١٥

كتب الأدب والشعر والتراجم والسير والطبقات والأمالى والأخبار والمعاجم ... فتحقق بذلك تحول التجربة الذهنية أو المعاشة من أفعال وتخيلات إلى لغة شفوية ثم لغة مكتوبة في نسق من الرموز والعلامات والعناصر الواقعية والبنيات المتداخلة ، ورغم هذا التحول الذي مرت به القصص بعد أن تلبست بصوته ومخيلته تاركا بهذا التلبس أثرا واضحا على مروياته.

ولقد تطور الراوي وتنوع منظري الأدب ونقاده واختلفت نظرتهم إليه باختلاف مناهجهم وأدواتهم فالمدرسة التقليدية منذ أفلاطون إلى هنري جيمس ترى في الرواية الواجهة الإنسانية^(١) ، فهو إنسان واقعي يعيش بين جمهوره ويرى القصة بلسانه ، ويؤثر فيها بصوته ولجهته ونبرته وخياله على مجرى الأحداث وهذا ما كان متعارفا عليه في ظل سيادة الأدب الشفاهي.

أما المدرسة البنيوية فقد كانت تنظر إلى الراوي من خلال تمثيلة لموقع كلامي أو خطابي إلا أن هذه المدرسة سرعان ما طبقت فكرة باختين^(٢) التي تنبه فيها إلى حقيقة صاغها بعد ذلك بنفس^(٣) صياغة محكمة تتلخص في أن النص القصصي ما هو إلا لغة أو كلمات وأن أي بحث عن أي عنصر فيها ينبغي أن يبدأ من اللغة وبناء على ذلك فإنه لا يمكن معرفة الراوي إلا من خلال الأثر الذي يخلفه حضوره في هذه اللغة المكونة للقصة وبالتالي فإن دراسة الراوي ما هي إلا دراسة للخطاب أي دراسة للوظائف اللغوية التي يتركها وجوده في هذا الخطاب باعتباره مخاطباً. لذلك يعتبر الراوي هو الصوت الضابط لكل الأصوات . فهو الصوت الناقل لكلام الشخصيات الحاكي له ، وهو القائم بمهام التنسيق والتوليف والتأطير لتخرج هذه الأصوات واللهجات من التنافر والنشوز إلى التناغم والتآلف ، وقد يناقش كلام الشخصيات ويقومه ، ويؤيده أو يعارضه أو يفسره أو يدحضه ، وبذلك يتميز خطاب الراوي عن خطاب الشخصيات ويمكن تلخيص هذه المميزات كالتالي:-

- التوفيق بين الخطابات المتنافرة والأصوات واللهجات المختلفة.
- نقل كلام الآخرين نقلا يوهم بأنه حرفي.
- مناقشة كلام الشخصيات (تفسيره أو تطويره أو تقويمه أو دحضه أو تأييده)^(٤)

(١) الراوي والنص القصصي . د. عبد الرحمن الكردي (مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٦م) ص ٥٦.

(٢) السابق

(٣) السابق ص ٥٨

(٤) السابق

من خلال هذه المميزات يرى باختين أن خطاب الراوي ما هو إلا نموذجاً للخطابات الموجودة في الحياة يقول : " فالناس في حياتهم اليومي يتكلمون عما يقوله الآخرون ، ينقلون كلمات الغير وآراءه ومزاعمه يتذكرونها ، يزيفونها ، يناقشونها ، يستأوون منها ، يوافقون عليها ، يعارضونه فيما يستشهد بها" (١)

وظيفة الراوي في قصص الصعاليك

يظهر دور الراوي في النص القصصي من خلال مجموعة من الوظائف يستدل بها على وجوده وتحدد بها معالم شخصيته وتبرز عن طريقها سماته ومعارفه ، لذلك يختلف هذا الدور من راوٍ لآخر تبعاً لاختلاف رؤيته للحدث أو الخبر الناقل له ، ومدى علاقته به ويمكن تلخيص هذه الوظائف فيما يلي:-

(١) وظيفة الحكيم والإخبار:

يفترض الحكيم وجود شخص يحكي وشخص يحكى له أي تواصل بين طرفين طرف أول يدعى راوياً وطرف ثانٍ يدعى مروياً له أو قارئاً بهدف توصيل الحكاية والتأثير في المخاطب عن طريق السرد ، وينشأ عن ذلك ما يسمى لدى نقاد القصة بمصطلح الخطاب السردى أو الأسلوب الإخباري السردى القائم على التوازن بين حدثين وفعلين وزمانين ، حدث الفعل من ناحية وحدث الإخبار من ناحية أخرى ، ثم زمن الفعل من ناحية وزمن الإخبار عنه من ناحية أخرى ، ثم فاعل الفعل من ناحية وفاعل الإخبار عن هذا الفعل من ناحية أخرى.

ولتوضيح ذلك نسوق مثلاً أورده صاحب الأغاني فقال:

"خرج سليك في الشهر الحرام حتى أتى عكاظ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه، ثم خرج متفضلاً مترجلاً، فجعل يطوف الناس ويقول: من يصف لي منازل قوم، وأصف له منازل قومي؟....." (٢)

يعبر هذا المثال عن حدثين أولهما حدث الخروج الواقع من السليك ، والثاني حدث الإخبار عن الخروج الواقع من الراوي . ونجد أن فاعل الحدث الأول السليك وفاعل الحدث الثاني راوٍ تعتمد حكاية الخبر وتوصيله لسامع أو لقارئ بغية التأثير فيه . ونلاحظ أن زمن الحدث الأول سابق لزمن الحدث الثاني وتالياً له . لذلك اعتمد الراوي على الأفعال الماضية

(١) الكلمة في الرواية . ميخائيل باختين . ترجمة : يوسف جلال (منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية

السورية) ص ١٠٨

(٢) الأغاني ٢١/٦٦

(خرج ، أتى ، اجتمع ، ألقى ، جعل)) وحضر الفعل المضارع مرتين فقط عندا إسناد القول "يقول" وفي مقول القول "يصف" وبذلك يظهر ، صوت الراوي سارد الحكاية ، مسيطرا على القصة حتى عند إسناد القول غاب صوت القائل أو الشخصية وظهر صوت الراوي أو الحاكي مكانه.

وقد تقوم الشخصية بدور الراوي للحدث فتكون الراوية بضمير المتكلم من ذلك قول
تأبط شراً "

"وشر يوم لقيت اني خرجت، حتى إذا كنت في بلاد ثمالة أطوف، حتى إذا كنت من القفير عشيا إذا بسبع خلفات فيهن عبيد، فأقبلت نحوه، وكاني لا أريده وحذرني فجعل يلوذ بناقة فيها حمراء، فقلت في نفسي: والله إنه ليثق بها. فأفوق له، ووضع رجله في أرجلها وجعل يدور معها، فإذا هو على عجزها. وأرميه حين أشرف فوضعت سهمي في قلبه فخر، وتدت الناقة شيئا وأتبعها فرجعت فسقتهن شيئا ...» (١)

فتلاحظ بروز ضمير المتكلم المتصل والمنفصل والمستتر والظاهر . من خلال الشخصية المتقصصة لدور الراوي ، والتي كانت محورا رئيسا للأحداث.

(٢) وظيفة التوثيق:

يساعد توثيق الراوي للخبر والحكاية على قبول القارئ أو المخاطب بها والاقتران بصدق أحداثها والتأثر بها وهو الهدف من رواية الخبر أو القصة . ويسقط القبول والإقناع والتأثير لمجرد مظنة الشك وعدم التصديق . ويعتبر ظهور الراوي في القصة ومعرفة القارئ له نوعا من التوثيق فيضفي وجوده صبغة الصدق والواقعية التي تدفع المخاطب لقبولها والتأثر بها.

وللرواة طرق متعددة في إبراز جوانب توثيق مروياتهم منها:

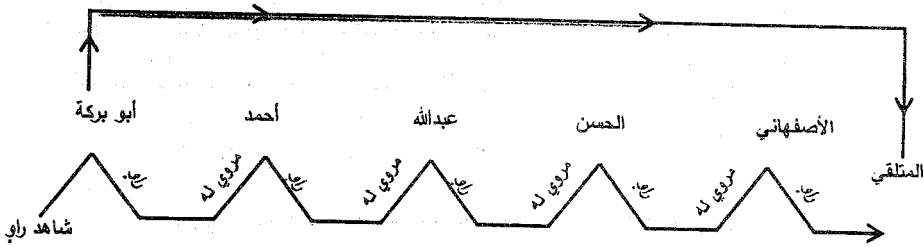
• الإسناد:

يلبس راوي القصة طلبا للحقيقة أو الصدق التاريخي قميص راوي الحديث الشريف الثقة الضابط لنصه فيتشابه معه في طريقة روايته وفي عنونة سنده ، من ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني قال:

" أخبرني الحسن بن علي ، عن عبدالله بن أبي سعد عن أحمد بن عمر ، عن أبي بركة الأشجعي قال : أغار تأبط - شراً وهو ثابت بن العمير الفهمي ، ومعه ابن براق الفهمي على بجيلة فأطرد لهم نعماً....."(١)

تمر الرواية في هذا الخبر بخمس مراحل طرفاها المتلقي والشاهد.

تمر الرواية في هذا الخبر بخمس مراحل طرفاها المتلقي والشاهد



كما قد يضيف الراوي إلى سنده روايته مما تم نسخه من ذلك ما ورد في الأغاني بقوله " نسخت أخبار حازم من رواية أبي عمر الشيباني من كتاب بخت الكوكبي..."(٢)

• تقصي الخبر وتتبع الروايات:

يتحرى الراوي الدقة والصدق فيما يرويهِ من خلال تتبع الخبر أو القصة عند أكثر من راوٍ وقد يختلف محتوى القصة من راوٍ لآخر وقد يتفق الرواة على المحتوى ويكون الاختلاف في التقديم والتأخير والحذف ونحوه . وقد أشار صاحب الأغاني لمنهج في كتابه عند وجود هذه الاختلافات فقال:

"فاما السليك فأخبروني بخبره الأخفش عن السكري عن أبي حبيب عن ابن الإعرابي قال : وقرئ لي خبره وشعره علي محمد بن الحسن عن الأثرم عن أبي عبيده ، أخبرني ببعضه اليزيدي عن عمه ابن حبيب عن ابن الإعرابي عن الفضل ، وقد جمعت رواياتهم ، فإذا اختلفت نسبت كل مروي إلى راويه"(٣)

الترم صاحب الأغاني بهذا المنهج فعندما اختلف الرواة حول سبب تسميته تأبط شراً أورد أربع روايات مختلفة دارت حول هذه التسمية لم يرجح بينها وترك الاختيار للقارئ أو المخاطب وهي:

(١) السابق

(٢) السابق

(٣) السابق

الرواية الأولى:

تأبط شرا لقب لقب به، ذكر الرواة انه كان رأى كبشا في الصحراء، فاحتمله تحت إبطه، فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش، فلم يقله فرمى به فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شرا فسمي بذلك. (١)

الرواية الثانية :

وقيل: بل قالت له أمه: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال لها: سأتيك الليلة بشيء، ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه، فلما راح أتى بهن في جراب متأبطا له، فالتاه بين يديها، ففتحتة، فتساعين في بيتها، فوثبت، وخزجت، فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: اتاني بأفاع في جراب، قلن: وكيف حملها؟ قالت: تأبطها، قلن: لقد تأبط شرا، فلزمه تأبط شرا. (٢)

الرواية الثالثة:

حدثني عمي قال حدثني علي بن الحسن بن عبد الأعلى عن أبي ملحمة بمثل هذه الحكاية وزاد فيها أن أمه قالت له في زمن الكمأة: ألا ترى غلمان الحي يجتنون لأهلهم الكمأة، فيروحون بها؟ فقال أعطيني جرابك، حتى أجتني لك فيه، فأعطته، فملأه لها أفاعي، وذكر باقي الخبر مثل ما تقدم. (٣)

الرواية الرابعة :

سمي تأبط شرا - فيما حكى لنا - لقي الغول في ليلة ظلماء في موضع يقال له رحي بطسان في بلاد هذيل، فأخذت عليه الطريق فلم يزل بها، حتى قتلها، وبات عليها فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه، فقالوا له: لقد تأبطت شرا، فقال في ذلك:

تأبط شرا ثم راح أو اغتدى
يوائم غنماً أو يشيف على ذحل (٤)

أما المفضل الضبي فقد ظهرت مقدرته على المقارنة بين الروايات المختلفة للقصة الواحدة وتوضيح الفروق والاختلافات بينها في ذكر قصة تأبط شرا والشنفري الأزدي وعمر بن براق مع بجيلة على النحو التالي:

" إن أبا عمرو الشيباني قال अगर تأبط شرا والشنفري والأزدي وعمر بن براق على بجيلة بفتح الباء وكسر الجيم. فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم على الماء رسدا؛ فلما مالوا له في جوف الليل قال لهم تأبط شرا: إن بالماء رسدا. وإنني لأسمع وجيب قلوب القوم قالوا: والله ما نسمع شيئا، ولا هو إلا قلبك يجب! فوضع يده على قلبه فقال: والله ما يجب وما كان وجابا قالوا: فلا والله ما لنا بد من ورود الماء فخرج الشنفري، فلما رآه الرصد عرفوه، فتركوه فشرب ثم رجع إلى أصحابه فقال: والله ما بالماء أحد، ولقد شربت من الحوض! فقال تأبط شرا: بلى، ولكن القوم لا يريدونك ولكن يريدونني، ثم قال

(١) السابق ٨٦/٢١

(٢) السابق

(٣) السابق

(٤) السابق ٨٧/٢١

للسنفرى: إذا أنا كـرعت في الحوض فإن القوم سيشدون علي فيأسرونني، فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فكن في أصل ذلك القرن، فإذا سمعتني أقول: خذوا، خذوا فتعال فاطلقني. قال وقال لابن براق: إني سأمرك إن تستأسر للقوم، فلا تبعد منهم ولا تمكنهم من نفسك، ثم اقبل تأبط شرا، حتى ورد الماء، فلما كرع في الحوض شدوا عليه فأخذوه وكتفوه بوتر، وطار السنفرى فأتى حيث أمره، وانحاز ابن براق حيث يرويه؛ فقال تأبط شرا: يا بجيلة، هل لكم في خير؟ هل لكم أن تياسرونا في الفداء ويستأسر لكم ابن براق؟ فقالوا: نعم فقال: ويلك يا ابن براق! إن السنفرى قد طار، فهو يصطلي نار بني فلان، وقد علمت الذي بيننا وبين أهلك، فهل لك أن تستأسر ويياسرونا في الفداء؟ فقال: أما والله حتى أروى نفسي شوطا أو شوطين: فجعل يستن في قبل الجبل ثم يرجع، حتى إذا راوا أنه قد أعيأ وطمعوا فيه اتبعوه، ونادى تأبط شرا: خذوا خذوا فذهبوا يسعون في أثره؛ فجعل يطعمهم وينأى عنهم؛ وخالف السنفرى إلى تأبط شرا فقطع وثاقه، فلما رآه ابن براق قد قطع عنه انطلق، وكر إلى تأبط شرا فإذا هو قائم؛ فقال: أعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق، أما والله لأعدون لكم عدوا أنسيكموه ثم انطلق هو والسنفرى^(١)

بعد الانتهاء من سرد القصة ذكر الاختلاف بين الروايات بالتقدم والتأخير والحذف ونحوه . ولكنه لم يرجح أيها أصح رواية فقال:

قال أبو محمد - رحمه الله - وكذا روى أحمد بن حسين الخبر فيما أخبرني عن أبي عمرو الشيباني غير أنه قال: وما هو إلا قلبك، ولم يقل يجب وقال في روايته فوضع يده على فؤاده ولم يقل قلبه، وقال في روايته فإن القوم سيشدون علي فيأخذونني ولم يقل فيأسرونني وزاد في روايته وانحاز ابن براق قال وروى فإنما زاد ابن براق قاله عن غير أبي عمرو وقال أحمد وفيما روى أبو عمرو فلما رآه ابن براق وقد أطلق عنه، وفي رواية ابن الأعرابي وقد قطع عنه، وروى عدوا ينسيكموه عن أبي عمرو عن غيره أنسيكموه...^(٢)

• الاستشهاد:

تساق الشواهد عادة لإثبات صحة الخبر المروي وبحض الشبهة عنه كما تضي عليه الواقعية والصدق التاريخي لتكون المادة أكثر قبولا وتأثيراً في المخاطب وتتمثل الشواهد في قصص الصعاليك عن طريق الشعر والأمثال وكلاهما يتناوب مع القصة الواردة مع واحد منهما على حفظ أحدهما للآخر فالشعر أو المثل وهما الأكثر انتشارا وحفظا من القصة يكفلان الانتشار والحفظ لها ، على حين تشكل القصة المقترنة بأحدهما خلفية تبعث الحياة والواقعية داخل الشعر أو المثل فتكون هذه الأحداث وثيقة تشهد بواقعية الشعر أو المثل . كما يكون الشعر والمثل وثيقة تحفظ القصة من ذلك ما جاء في الأغاني بقوله:

تأبط شرا هو ثابت بن جابر هو من فهم، وفهم وعدوان أخوان، وكان خطب امرأة من عيسى من بني قارب فأرادت نكاحه فوعده فلما جاءها وجدها قد نزلت فقال لها ما غيرك، فقالت والله إن الحسب لكريم ولكن قومي قالوا ما تصنعين برجل يقتل عند أحد اليوميين وتبقيين بلا زوج فانصرف عنها وهو يقول :

(١) ديوان المفضليات ٦/١-٧

(٢) السابق ٦/١

وقالوا لها: لا تنكحيه فإنه
لأول قرن أن يلاقى مجمعا^(١)

أما الأمثال فقد كانت مرآة تعكس طابع الحياة والبيئة ، كما تعكس طابع القوة والاستقلالية والعدوانية التي طبعت الصعاليك وحياتهم . وقد حفلت كتب الأمثال بقصص أمثال ، من ذلك ما ذكره الميداني فقال:

قال الفضل: كان السليك بن السليكة السعدي نائما ، فبينما هو كذلك إذ جنم رجل على صدره ثم قال له: استأسر. فقال له سليك: الليل طويل وأنت مقمر أي في القمر، يعني أنك تجد غيري فتعدني قأبي، فلما رأى سليك ذلك التوى عليه وتسمنه^(٢) يضرب، عند الأمر بالصبر والتأني في طلب الحاجة.

• تحديد المكان:

يفرض المكان حضوره على الحدث القصصي ، وذكر الراوي له وتحديدده يجعل الأحداث أكثر واقعية وأقرب للتصور الذهني بالإضافة إلى استبطانه الدلالات المتعددة التي تكشف طبيعة الحدث وأحوال الشخصيات وظروفهم . وقد أكد على هذا د. حميد الحمداني وأشار إلى قول هنري متران الذي يعتبر المكان مؤسسا للحكي لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة^(٣).

وفي قصص الصعاليك يعمد الراوي إلى التأطير المكاني ، وجعله مسرحاً تتحرك عليه الشخصيات فيعكس معرفتهم الواسعة بالأمكن كما عكس طابع حياتهم القائمة على عدم الاستقرار وكثرة التنقل . مثال على ذلك ما جاء في الأغاني فقد قال:

أخبرني الحسن بن علي عن عبد الله بن أبي سعد عن أحمد بن عمر عن أبي بركة الأشجعي قال: أغار تأبط شرا - وهو ثابت بن العميتل الفهمي، ومعه ابن براق الفهمي على بجيلة - فأطردا لهم نعما، ونذرت بهما بجيلة، فخرجت في آثارهما ومضيا هاربين في جبال السراة، وركبا الحزن، وعارضتهما بجيلة في السهل فسبقوهما إلى الوهط - وهو ماء لعمر بن العاص بالطائف - فدخلا لهما في قصبه العين، وجاء، وقد بلغ العطش منهما، إلى العين^(٤)

(١) شرح ديوان الحماسة ٢٦/١

(٢) مجمع الأمثال . الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم . تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم (دار الجليل ، بيروت ط ٥ ، د ٥٠/١ .

(٣) بنية النص السردي ص ٦٥ .

(٤) الأغاني ١٤٢/٢١ .

وهكذا نلاحظ أن الراوي يحمل المخاطب على التنقل لمتابعة الحدث ، فيصعد الجبل ويهبط الوادي ويشعر بالحذر والريبة والخوف من هذه المجهول . وكذلك تكون القصة أقرب لذهن المخاطب وأكثر واقعية.

(٣) وظيفة الشرح والتعليق والتفسير.

قد يتجاوز الراوي في نقل الأحداث والأخبار وتصويرها إلى التفسير والتعليق والإيضاح ، وبيان الأسباب ونحوه فيظهر بذلك فكر الراوي ومعرفة إلى جانب فكر الشخصيات ومعرفة. ولذلك تختلف هذه الوظيفة باختلاف الرواة ومدى تدخلهم في البناء القصصي لاختلاف رؤيتهم المبينة لهذه القصة أو الحكاية ، ومدى معرفتهم بالشخصيات والأحداث وبيئة الحدث ، وزمانه.

وفي قصص الصعاليك نلاحظ حضور الفقرات الدالة على تدخل الراوي حسب رؤيته للنص والزاوية التي يرى منها القصة . ويأخذ تعليق الراوي طرقا عدة منها:

• التعريف بالشخصية

يذكر الراوي اسم الشخصية ونسبها تمهيدا للقصة التي يرويها جاعلا من هذا التعريف مدخلا لها . ومن قول الراوي:

" تأبط شرا هو ثابت بن جابر بن براق بن فهم ، وفهم وعدوان إخوان..."^(١) "مالك بن الربيع بن حوط بن فرط بن حسل بن ربيعة أن كابية بن حر قوص بن مازن بن مالك بن تميم"^(٢)

• تحديد شخصيات القصة

وغالبا ما يبدأ القاص بتحديد شخصيات القصة للتعريف بهم من ذلك:

" خرج - تأبط شرا - من عدة فهم فيهم عامر بن الأخنس والشنفري ، والمسيب ، وعمر بن براق ، ومرة بن خلف حتى بيتوا العوص وهم حي من بجبلية فقتلوا نفرا منهم"^(٣)

قال المفضل :

زعموا أن سليكا خرج ومعه رجلان من بني الحارث امرئ القيس بن زيد مناة من تميم يقال لهما غترو وعاصم ، وهو يريد الغارة..."^(١)

(١) ديوان الحماسة ٢٦/١.

(٢) الأغاني ٤٦٤/٢٢.

(٣) السابق ٩٥/٢١.

• وصف الشخصية من الجانب المادي أو المعنوي

وغالباً ما يوظف الوصف للحدث فمن الأول - الوصف المادي - ما يلي:

" أقصر أبو خراش الهذلي من الزاد أياما ، ثم بامرأة من هذيل جزلة" (١) " برز تأبط شرا للشمس من ظل الجبل وذلك أنه وجد البرد فنام وكانت إصبعان ملتصقان من أصابع رجله ، وتبعتهما بنو سلامان فعرفوه بإصبعي رجله" (٢)

ومن الوصف المعنوي ما يلي:

" كان أبو الظمحان القيني وهو حنظلة بن الشرقي شاعرا مجيدا وكان مع ذلك فاسقا" (٣)
" شظاظ مولي بني تميم وكان أخبثهم" (٤)

" مالك بن الريب المازني وكان من أجمل الناس وجها واحسنهم ثيابا" (٥)

• وصف الهيئة

قد يعمد الراوي إلى وصف هيئة بعض شخوص قصته ، من ذلك قوله في وصف الهيئة التي كانت عليها أم خراش:

" فأنطلقت وهي على قعود عقيلي يسابق الريح" (٦)

وقول المفضل في وصف هيئة الشنفرى:

" طالع لهم الشنفرى في إحدى رجله نعل والأخرى لا نعل فيها" (٧)

• تحديد الزمن والمكان

يعمد الراوي إلى تحديد زمان القصة ومكانها فيتضح بذلك البيئة والظروف المحيطة بها ودورها في سير الأحداث . من ذلك قول الراوي:

(١) السابق ٤٦٥/٢٠ .

(٢) السابق ٢١٩/٢١ .

(٣) ديوان المفضليات ١/١٩٥ .

(٤) العقد الفريد . ابن عديريه : أحمد بن محمد ، ٣٢٨ هـ ، ط ١ ، ت ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ٤١/٧ .

(٥) الأغاني ٢٢/٤٦٤ .

(٦) السابق

(٧) السابق ٢١/٢١٢ .

(٨) شرح المفضليات ١/١٩٨ .

خرج الشنفري ... في ثلاثين رجلا ومعه تأبط شرا يريدان الغارة على بن سلامان ابن مفرج من الأزد فباتوا بواد يقال له مشعل قريب من محل بني سلامان ...^(١)

" خرج - الأعلم - واخوه صخر وصخير ، حتى أصبحوا تحت جبل يقال له السطاع في يوم من الأيام الصيف شديد الحر وهو متابط قرية لهم فيها ماء ، فأبيستها السموم ...^(٢)

• التأكيد ودفع الشك

وقد يأخذ التعليق أو التفسير على جانب ودفع الشك في أمر . من ذلك ما ورد في قصة تأبط - شراً والشنفري وابن براق ، فعندما قال تأبط شراً : "إني لأسمع وجيب قلوب الرجال تحت قدمي " قال الراوي مؤكداً على ذلك : " وكان من أسمع العرب وأكدهم " وبهذا التعليق أكد قوة السمع التي تميز بها تأبط شراً وأبعد الريبة والشك التي قد تتسرب للقارئ أو المخاطب من استفهام ابن براق " ما يدريك؟ " ثم تحديده مصدر الصوت المسموع " ذلك وجيب قلبك "^(٣)

ومن الشرح ما ورد في قصة الشنفري حين قال الراوي:

" كان الشنفري في بني سلامان بن مفرج لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره وكان السلامي اتخذه ولداً وأحسن إليه وأعطاه ، فقال لها الشنفري اغسلي رأسي يا أختي وهو لا يشك في أنها أخته فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضباً حتى أتى الذي اشتراه من فهم فقال له الشنفري أصدقني ممن أنا؟ قال أنت من الأوس بن الحجر ، فقال : أما إني لن أدمكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتموني ...^(٤)

وتتأثر صيغ الخطاب بحضور الراوي في النص القصصي وغيابه ، فيتشكل بحضوره أسلوب السرد ويحضر بغيابه أسلوب العرض . ويرى بعض النقاد أن " القصة تظل مجموعة من الأحداث والأفعال والشخصيات حتى يأتي دور الراوي فيحولها إلى خطاب لغوي أو منطق كلامي يوجه إلى مستمع يعمل على التأثير فيه "^(٥)

أنواع الخطاب السردى:

يشكل الخطاب السردى في قصص الصعاليك حضوراً واضحاً موظفاً الأحداث والشخصيات والأفعال في زمن يشهد على تتابع هذه الوقائع ، وعلى مكان يكون مسرحاً لهذا

(١) السابق

(٢) الأغاني ٥٠٢/٢٢ .

(٣) ديوان المفضليات ، ج ١/٦-٧ .

(٤) الأغاني ١٩٥/٢١ .

(٥) الراوي والنص ، القصص ص ٥٦ .

التتابع الحركي . ولعل هذا الحضور للخطاب السردى وما يتضمنه من حركة تتوافق مع حركة الصعاليك وكثرة تنقلاتهم بسبب القلق والاضطراب والصراع الدائم الذي تتسم به حياتهم وسيادة الخطاب السردى في قصص الصعاليك تعد فارقا عن القصص الشعري الذي يسود فيه أسلوب الوصف أكثر من السرد^(١)

ويتنوع السرد في قصص الصعاليك تبعاً لتنوع مضمونه الذي يصل حياة الصعاليك المتمردة الساخطة الساخرة المستقلة عن حياة القبيلة ونظامها وأعرافها ، فيميل إلى الواقعية أو الفنتازية أو السخرية لذلك نلاحظ فيه الواقعية حين يكون الخطاب السردى حاملا من التاريخ أحداثا يصدق التاريخ ذاته عليها ويشهد على واقعتها عبر علاقة واضحة ودلالات مباشرة لا تحتمل الغموض أو الإبهام ، إلا أنه مع واقعتها يمكن أن تكون من صنع خيال الراوى ، كما يمكن إدراكها عبر الحواس متظافرة.

ويمكن تلخيص هذه الاشتراطات في الخطاب السردى الواقعي بما يلى :

- حكايته لأحداث حدثت لشخصيات في زمان ومكان عبر لغة سردية .
- إمكانية تحقق الأحداث التى يسردها واقعا .
- وضوح العلاقات بين الراوى والمروى لهم .
- تناولها - غالبا - عوالم ظاهرة مدركة عبر الحواس^(٢)

وقد نلاحظ تحول الخطاب عن الواقعية لسرده أحداثا لا يمكن أن تتحقق في الواقع مع احتفاظه ببقية الاشتراطات التي يشتمل عليها الخطاب السردى الواقعي إلا أنه يفقد هذه الواقعية ويتسم عندها بسمات الخطاب الفنتازي (الغرابي أو العجائبي) فينتزع من البيئة قسوتها ، ومن حياة الصعاليك غير المستقرة وخيالاتهم المضطربة اضطراب حياتهم أحداثا وقصصا وشخصيات من عالم الجن و الغول ونحوها مما لا يتفق مع الواقع وإنما يضرب في عالم الخيال.

كما أن الخطاب قد يتحول عن الواقعية لتضمنه دلالات غير مباشرة فيفقد بذلك وضوح العلاقة بين الراوى والمروى ليصبح خطبا ساخرا يحمل في طياته إلى جانب دلالاته ، تخديرا

(١) السرد في الشعر العربي استراتيجيات الرؤية وآليات القصص . حاتم الصكو . (آفاق مجلة اتحاد كتاب المقرب ، العدد ٦٦-٦٢- مزيج ، ت ١٩٩٩م) ص ٣٧.

(٢) تحولات الخطاب الروائى العربى . عبدالحكيم سليمان المالكي (عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط ١ ، ت ٢٠٠٦م) ص ٦٦٤.

للذات المثقلة بهجوم الصلعة ليخرجها من مآزق الألم والغربة. ومع أي من هذه الخطابات نلاحظ حضور خطاب الأجناس فتضم القصة أبيات شعرية تكمل مضمون القصة أو تلخصه.

أنواع الخطاب السردى واشتراطاتها:

الشرط	الواقعي	الافتراضي	الساخر
الأحداث واقعية	✓	x	✓
العلاقة واضحة بين الراوي والمروي له	✓	✓	x
احتمال أن تكون الأحداث لعبية	✓	✓	✓
تناوله عوالم ظاهرة مدركة بالحواس	✓	✓	✓

الخطاب الواقعي :

اعتمد الرواة في مروياتهم عن أخبار الصعاليك وقصصهم على مادة إخبارية نقلت مشافهة ثم دونت كتابة على أنها تاريخ تسجيلي يعبر عن واقعية تتفق بها هذه القصص مع اشتراطات الخطاب السردى الواقعي النابعة من زمن القصة ومكانها وبيئتها وظروف الصعاليك وحياتهم التي اتصلت بقبائل عدة لها وجودها التاريخي الواقعي. بمعنى أن هذه الواقعية لا تتبع من تاريخيتها فقط وإنما من احتوائها أيضا لاشتراطات الخطاب الواقعي. وقد تمثل ذلك في قصة تأبط شراً والشنفري الأزدي وعمرو بن براق مع بجيلة^(١) وقصة السليك مع قيس بن مكشوح^(٢)، ومع بني كنانة^(٣) ومع الخثعمي^(٤) وقصة الأحيمر مع النعمان بن المنذر^(٥) وصحبه مالك بن الرب لأبي حريّة وشظاظ^(٦) وقصته مع سعيد بن عثمان بن عفان والي معاوية على خراسان^(٧) وقصة أبي خراش مع أهل مكة^(٨) وقصة أبي الطمحان القيني مع يزيد بن عبد الملك^(٩) ... فوردت هذه الحقائق التاريخية الاجتماعية في كتب شروح الشعر وكتب

(١) ديوان المفضليات ٦/١-٧.

(٢) الأغاني ٤٦٤/٢٠.

(٣) السابق ٤٧٠/٢١.

(٤) السابق ٤٧١/٢١.

(٥) العقد الفريد ٢٨٦/٣/٣.

(٦) الأغاني ٤٧٢/٢١.

(٧) السابق ٤٦٤/٢٠.

(٨) السابق ٢٢١/٢١.

(٩) العقد الفريد ٤١/٤.

التاريخ والأخبار والمعاجم... وحضرت هذه القصص في صياغة سردية متجاوزة حقيقة حضورها التاريخي يمكن إدراكها ذهنيا وحسيا فتشارك الحواس في استقبالها فيعيش المخاطب بيئة الصحراء وقسوتها والغربة ووحشتها والانفصال عن الجماعة.

كما أن ذكر الأماكن في قصص الصعاليك كان عاملا على إضفاء الواقعية^(١) على النص القصصي لأن المتلقي يرجع بذاكرته إلى أماكن مألوفة معروفة فيربط بينها وبين الحدث.

الخطاب الفنتازي

يعتبر الخطاب الفنتازي بقسميه الغرائبي والعجائبي وسيلة عملية للكشف عن هموم العصر وصراعاته وتناقضاته واهتمام أفرادها وتطلعاتهم ونظرتهم إلى الحياة والغيب . وقد تستمر هذه الصراعات والتناقضات وتتبدل بحكم الأعراف والعادات والتقاليد والواقع ، ولكن يعاد إنتاجها في صورة خطاب فنتازي ، فنلاحظ فيها خروجاً عن المألوف وكسراً للواقع المتداول لتحمل الكثير من الرموز والدلالات والإيحاءات.

وتشهد قصص الصعاليك توظيفا للسرد للفنتازي مثيرا للخوف بتلبسه للخطاب الغرائبي والدهشة بتلبسه للخطاب العجائبي وهي نقطة الخلاف بينهما^(٢)، فمن الخطاب الغرائبي ما يدور حول علاقة الصعاليك بالجن والغول وهي علاقة وثيقة بالأدب الشفوي عامة ويقصص الصعاليك خاصة ، فقد فرض عليهم أسلوب حياتهم كثرة التنقل والتخفي منفردين في بيئة تفتقر للأمن وتعاني من شظف العيش وصعوبة الحياة فتترك للذهن مجالا خصبا لحضور فكرة العالم الغيبي بما فيه من جن وسحر وغول. وتشكل منها عوالم حسب رؤيتهم راسمين بها هالة من الخوف والحذر منهم ومن محيطهم . من ذلك مثلا قصة تأبط شراً مع الغول التي صارعها وصارعها وحملها فاكتمسب بهذا الصنيع اسما تولدت منه روايات مختلفة . ومن هذه الروايات قولهم :

أخبرني الجرمي بن أبي العلاء قال : حدثنا أبو سعيد السكري قال : حدثنا ابن الأثرم ، عن أبيه وحدثنا محمد بن حبيب عن أبي عمرو قال : كان تأبط شرا يعدو على رجله ، وكان فاتكا شديدا فيات ليلة ذات ظلمة ويرق ورعد في قاع يقال له رحي بطن ، فلقيته الغول فما زال يقابلها ليلته إلى أن أصبح وهي تطلبه ، قال : والغول سبع من سباع الجن وجعل يراوغها وهي تطلبه وتلتمس غرة منه فلا تقدر عليه إلى أن أصبح . فقال تأبط شرا

بمألاقيت عند رحي بطن
بسهير كالمحيفة صححان

الامن مبلغ فتیان فهم
بأني قد لقيت الغول تهوي

(١) بنية النص السردى ص ٦٨.

(٢) تحولات الخطاب الروائي العربي : ص ٦٦٥.

فَقُلْتُ لَهَا كَلَانَا نَضُو أَيْنَ
فَشَدَّتْ شَدَّةَ نَحْوِي فَاهْوَى
فَاضْرِبْهَا بِإِلَا دَهْشِ فَخَرَّتْ
فَقَالَتْ عُدْ فَقُلْتُ لَهَا رَوَيْدَا
فَلِمَ أَنْفَكِ مَتْنُهَا عَلَيْهَا
إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسِ قَبِيحِ
وَسَاقَا مَخْدَجٍ وَشَوَاةٍ كَالْبُيُ

أَخُو سَفَرٍ فَخَلَّي لِي مَكَانِي
لَهَا كَفِّي بِمَصْرَقُولِ يَمَانِي
صَرِيحًا لِلْيَسْـَـدَيْنِ وَالْجَرَانِ
مَكَائِي إِنْ نِيْتُ ثَبِتَ الْجَنَانِ
لِي أَنْظِرْ مُصْـَـبِحًا مَاذَا أَتَانِي
كَرَّاسَ الْهَرَمِ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَتُوبًا مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شَتَانٍ^(١)

وفي رواية أخرى قيل :

أخبرني عمي عن الحزنبيل عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني قال: نزلت على حي من فهم إخوة بني عدوان من قيس، فسألتهم عن خبر تابط شرا، فقال لي بعضهم: وما سؤالك عنه، أتريد أن تكون لصا؟ قلت: لا، ولكن أريد أن أعرف أخبار هؤلاء العدائين، فأتحدث بها، فقالوا: نحدثك بخبره: إن تابط شرا كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره اسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته، حتى يأخذه، فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله، وإنما سمي تابط شرا لأنه - فيما حكى لنا - نقي الغول في ليلة ظلماء في موضع يقال له رحى بطنان في بلاد هديل، فأخذت عليه الطريق فلم يزل بها، حتى قتلها، وبات عليها فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه، فقالوا له: لقد تابطت شرا، فقال في ذلك:

تَابُطُ شَرَا ثُمَّ رَاحَ أَوْ اغْتَدَى يَوَائِمَ غَنَمًا أَوْ يَشِيفُ عَلَى زَحَلٍ^(١)

وفي رواية أخرى أيضا قيل:

تابط شرا لقب لقب به، ذكر الرواة أنه كان رأى كبشا في الصحراء، فاحتمله تحت إبطه، فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكرش، فلم يقلبه فرمى به فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما تابطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تابطت شرا فسمي بذلك^(٢).

حملت الروايات السابقة عن الغول خطابا غرائبيا يعكس فزع الإنسان من المجهول ، وهذا ما كان عليه الإنسان عامة والصعاليك خاصة ، فحياة التفرد والوحشة والوهم تدفعهم إلى إسقاط عالم الواقع على عالم الخيال لذلك حضرت الغول في ذهنهم حتى أصبحت اسما لكل شيء يعرض للسفار ويتلون في ضروب من الصور والثياب ذكرا أو أنثى^(٤)، قيل هو سبع من سباع الجن^(٥) ، وقيل هي الحرب أو شبيها.

(١) الأغاني ١٤٥/٢١.

• ينسب القزويني الأبيات لأبي البلاد الطهوي عبيد بن أيوب (عجائب المخلوقات. (دار الآفاق

الجديدة ، ط ٥ ، ت ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ص ٣٩١.

(٢) الأغاني ١٣٩/٢١ - ١٤١.

(٣) السابق ١٣٨/٢١.

(٤) الحيوان ١٩٥/٦.

(٥) الأغاني ١٤٥/٢١.

والحرب غولاً أو كشبه الغول تُزَفُّ بالزَّيَّاتِ والطُّبُولِ^(١)

ورددت هذه التصورات المخيلة الجماعية عامة وبرزت في مخيلة الصغاليك خاصة فكان تأبط شراً متمثلاً لها ، في قصصه ، فأفرغ في خطابه الغرائبي شحنة القلق والخوف والترقب التي تتسم بها حياته ، فكان خطابه الغرائبي مضادا لحالته ، ليظهر فيه انتصاره على الخوف القابع داخله كإنسان عندما ينتصر على الخوف الذي لازمه منذ خروجه منفرا عن القبيلة ؛ لذلك يرتبط بالزمان والمكان فيؤطر خطابه (ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد) ويحدده برحى بطن وما تحمله الرحى من دلالات الشدة. معنى هذا أن خطابه يقع بين الواقع الذاتي الفردي والواقع الخارجي كما صوره لنا الجاحظ في قوله : " استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع وتوهم على الشيء اليسير الحقير أنه عظيم جليل . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً ونشأ عليه الناشئ ورأى به الطفل فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي وتشتمل عليه الغطيان في الليالي الحنادس ، فعند أول وحشة وفزعة وعند صباح يوم ومجاوبة صدى وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور . وربما كان في أصل الصفة فعند ذلك يقول : رافقتها. ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها...

ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومد لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار ، وبهذه الأخبار إلا أعرابيا مثلهم ولم يسلك سبيل التوقف والثبت في هذه الأجناس قط. وإما أن يلقوا رواية شعر أو صاحب خبر ، فالرواية كلها كان الأعرابي أكذب في شعره كان أطرف عنده ، وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها ، وآخر يزعم أنه رافق في مفازة نمر فكان يطاعمه ويؤاكله^(٢)

ومن الخطاب الغرائبي أيضا قصة حاجز والعجوز قال أبو عمرو:

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: بَيْنَمَا حَاجِزٌ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ إِذْ أَحَاطَتْ بِهِ خُثْعَمٌ، وَكَانَ مَعَهُ بَشِيرُ ابْنِ أَخِيهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا بَشِيرُ، مَا تَشِيرُ؟ قَالَ: دَعَهُمْ حَتَّى يَشْرَبُوا وَيَقْلُوا وَيَمْضُوا وَنَمْضِي مَعَهُمْ فَيُظَنُّونَا بِعُضْهِمْ، فَفَعَلَا، وَكَانَتْ فِي سَاقِ حَاجِزٍ شَامَةٌ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا أَمْرَةً مِنْ خُثْعَمٍ، فَصَاحَتْ: يَا آلَ خُثْعَمٍ، هَذَا حَاجِزٌ، فَطَارُوا يَتَّبِعُونَهُ، فَقَالَتْ لَهُمْ عَجُوزٌ كَانَتْ سَاحِرَةً: أَكْفَيْكُمْ سِلَاحَهُ أَوْ عَدُوهُ، فَقَالُوا: لَا نَرِيدُ أَنْ تَكْفِينَا عَدُوهُ فَإِنْ مَعَنَا عَوْفَا وَهُوَ يَعْدُو مِثْلَهُ وَلَكِنْ أَكْفِينَا سِلَاحَهُ، فَسَحَرَتْ لَهُمْ سِلَاحَهُ، وَتَبِعَهُ عَوْفُ بْنُ الْأَخْرِ بْنِ هَمَامِ بْنِ الْأَسْرِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ بْنِ وَاهِبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ صَعْبِ بْنِ غَنَمِ بْنِ الْفَزَعِ الْخُثْعَمِيِّ، حَتَّى قَارَبَهُ، فَصَاحَتْ بِهِ خُثْعَمٌ: يَا عَوْفُ أَرْمِ حَاجِزًا، فَلَمْ يَقْدَمْ عَلَيْهِ، وَجِئْنَا، فَفَضَبُوا وَصَاحُوا: يَا حَاجِزُ، لَكَ الذِّمَامُ، فَاقْتُلْ، عَوْفَا فَإِنَّهُ قَدْ فَضَحَنَا، فَتَزَعَّ فِي قَوْسِهِ لِيَرْمِيَهُ، فَانْقَطَعَ وَتَرَهُ، لِأَنَّ الْمَرَأَةَ الْخُثْعَمِيَّةَ كَانَتْ قَدْ سَحَرَتْ سِلَاحَهُ، فَاخَذَ قَوْسَ بَشِيرِ ابْنِ أَخِيهِ فَتَزَعَّ فِيهَا فَانْكَسَرَتْ، وَهَرَبَا

(١) الحيوان ١٩٥/٦.

(٢) السابق

من القوم ففاتاهم ، ووجد حاجز بعيرا في طريقه فركبه فلم يسر في الطريق الذي يريده ونحا به نحو خثعم ، فنزل حاجز عنه ، فمر فتجا وقال في ذلك :

بسعبيكما بين الصفا والأثائب
حريق أباء في الرياح الثواقب
يضيء لدى الأقوام نار الحباب
ولكن صريح العدو غير الأكاذب
وينجو بشير نجواز عر خاضب
فكادت تكون شر ركبته راكب^(١)

فدى لكما رجلى أمي وخالتي
أوان سمعت القوم خلفي كأنهم
سيوفهم تغشى الجبان ونبلهم
فغير قتالي في المضيق أغاثني
نجوت نجاء لا أبيضك تبثه
وجدت بعيرا هاملا فركبته

يحمل الخطاب الغرائبي في هذه القصة دلالات عن قوة غير مكافئة تتمثل في قوة حاجز من جهة ، وفي عجز القبيلة من جهة أخرى . ويتمثل هذا العجز من خلال عدم قدرة هذه القبيلة على مواجهة هذا البطل الصلوك ، ويظهر هذا العجز أكثر ما يظهر من خلال استعانتهم (بعجوز كانت ساحرة) على الرغم من أن الأنوثة والهزم تمثلان الجانب الضعيف في الهرم القبلي . إلا أنها تجاوزت هذا الضعف وتلبست بقوة السحر لإبطال إحدى قوى البطل حاجز (أكفيكم سلاحه أو عدوه) وفي ذلك دلالة تكشف عن عجز السحر عن إبطال قوة البطل إبطالا كلياً . وبذلك أصبح حاجز أمام قوتين .

• القبيلة من خلال بطلها عوف العدا.

• العجوز من خلال إبطالها بالسحر سلاح حاجز.

وعلى الرغم من ذلك فقد نجا حاجز لعجز بطل القبيلة عوف عن قتل خصمه بعد اللحاق ، به فلحق من ذلك العار بقبيلته (يا عوف ارم حاجزا ، فلم يقدم عليه وجبن ... عوفا فإنه قد فضحنا) . وعجزت الساحرة عن النيل منه على الرغم من إبطالها لسلاحه (انقطع الوتر ... انكسر القوس ... لم يسر البعير) وهكذا حمل الخطاب الغرائبي قصة حاجز الذي احتجز - مثلما يدل اسمه - البطولة وأبطل قوة الخصوم وأما ما يحمله خطابه من تنديد بالقبيلة وبطولاتها الوهمية فإنه خطاب الصلوك الثائر المبطن بالخوف والقلق والتوتر.

وتستمر صور التحدي بين الصلوك (الفرد) والجماعة (القبيلة) أو جنس القبيلة عامة من خلال قصة تأبط شراً مع الكاهن بعد أن أعجز خثعم بغارته قال الراوي:

وذكروا ان تأبط شرا اغار على خثعم، فقال كاهن لهم: اروني اثره حتى آخذه لكم فلا يبرح حتى تأخذه، فكفثوا على أثره جفنة، ثم أرسلوا إلى الكاهن فلما رأى أثره قال: هذا ما لا يجوز في صاحبه الأخذ، فقال تأبط شرا:

ألا ابليغ بني فهم بن عمرو
مقال الكاهن الجامي لما
رأى قسدي وقمهما حثيث
أرى بهما عذابا كل عام
وشر كان صلب على هذيل
ويوم الأزد منهم شريوم

على طول التنائي والمقالته
رأى أثري وقد أنهيت ماله
كتحليل الظليم دعا رثاله
لختم أو بجيلة أو ثمالته
إذا علقبت حب الهم حباله
إذا بعدوا فقد صدقت قاله^(١)

يحمل الخطاب دلالات القوى الخفية التي تثير بحضورها الخوف والقلق وقد استعانت بها ختم ، وفي هذه الاستعانة بها دليل على عجزهم عن مقابلة تأبط شرا ، ثم عجز الكاهن وقواه أيضاً (هذا ما لا يجوز في صاحبه الأخذ) وإذا كان خطاب حاجز يحمل التنديد والتعريض بقبيلة واحدة فإن خطاب تأبط شرا يحمل التنديد بقبائل متعددة منهم ختم وبجيلة وثمانية الأزد.

وقد يحمل الخطاب الفنتازي ، بدلالاته التعجبية وما يحدثه من دهشة ، احتياج الصعلوك الذي استمرأ حياة الصعلكة وما فيها من خوف وقلق وتوتر ، إلى حياة كريمة تبعث الارتياح وتصلها بالحياة الإنسانية من ذلك قصة تأبط شراً واشتير العسل ، فقد قيل فيها:

" كان تأبط شرا يشتار عسلا في غار من بلاد هذيل، يأتيه كل عام، وإن هذيلاً ذكرته، فرصدوه لإبان ذلك، حتى إذا جاء هو وأصحابه تدلى، فدخل الغار، وقد أغاروا عليهم فأنفروهم، فسبقوهم ووقفوا على الغار، فحركوا الحبل، فأطلع تأبط شرا رأسه، فقالوا: أصعد، فقال: إلا أراكم، قالوا: بلى قد رأيتنا. فقال: فعلام أصعد، أعلى الطلاقة أم الفداء؟ قالوا: لا شرط لك، قال: فأراكم قاتلي وأكلي جناي، لا والله لا أفعل، قال: وكان قبل ذلك نقب في الغار نقباً أعده للهرب، فجعل يسيل العسل من الغار ويهريقه، ثم عمد إلى الزق فشده على صدره ثم لصق بالعسل فلم يبرح ينزلق عليه حتى خرج سليماً وفاتهم، وبين موضع الذي وقع فيه وبين القوم مسيرة ثلاث، فقال تأبط في ذلك:

وطابي ويومي ضيق الحجر معور
وأما دم والقتل بالحر أجدر
لمورد حزم إن ظفرت ومصدر
به جوجؤ صلب ومثن مخصر
به كذخت والموت خزبان يتظر
وكم مثلها فارقتها وهي تصغر
اضاع وقاسى أمره وهو مدبر
به الأمر إلا وهو للحزم مبصر
إذا سدد منه متخر جاش متخر^(٢)
بلقمان لم يقصر بي الدهر مقصر

أقول للحيان وقد صغرت لهم
هما خطتا إما إسار ومثمة
وأخرى أصادي النفس عنها وإنها
فرشت لها صدري فزل عن الصفا
فخالط سهل الأرض لم يكده الصفا
فأبت إلى فهم وما كنت أيبا
إذا المرء لم يحتل وقد جد جد
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا
فذاك قريع الدهر ما كان حولا
فإنك لو قايست بالصلب جيلتي

تحمل القصة رغبة الذات رغم صعلكتها في الحياة الإنسانية الكريمة التي يفقدوها الصعلاليك فكان في اشتير العسل اشتير للحياة التي يبحث عنها ويسعى لها منذ أن

(١) السابق ٩٩/٢١.

(٢) الأغاني ٩٤-٩٥.

اغتصبتها منه القبيلة بهضم حقه كفرد منها . فقد تمسك الصعلوك بهذه الحياة (العسل) رغم كل الصعوبات والمشقات التي تعترض طريقه متجاهلاً لها (لا أراكم) ، كما تحمل إراقة العسل (فجعل يسيل العسل من الغار ويهريقه) الرغبة في التفرد بنيل هذه الحياة والتمسك بها (ثم عمد إلى الزق فشده على صدره ثم ألصق بالعسل فلم يبرح ينزلق عليه حتى خرج سليماً)، هكذا يلتصق بالحياة الكريمة السهلة الآمنة التي يبحث عنها ليتشكل من خلال الخطاب العجائبي الصراع على الحياة من خلال الصراع على العسل.

الخطاب الساخر:

يشمل مفهوم السخرية الطرافة والدعابة والنكتة ، إلا أنه في هذه القصص ظل مشدوداً إلى ما يمثل الذروة الدلالية فتكشف عن علاقات متوترة وشروخ اجتماعية ونفسية عميقة وهذا عند ميخائيل باختين من الوسائل التي قد يوظفها الإنسان لمواجهة الحالات الدرامية التي يصادفها كي يخرجها من مساحتها الملحمية ويدخلها حيز الواقع والمعيش والاتصال الحر البعيد عن التكلفة^(١) وحياة الصعاليك تقوم في الأصل على الاصطدام مع المجتمع القبلي فقد عاش الصعلوك مرارة القهر ووطأة الاغتراب وجرح الظلم والضميم . فكان خطابه الساخر يرمي إلى تخفيف حجم التوتر من ناحية والنيل من خصومه من ناحية أخرى . ومن ذلك قصة بيع تابط شراً اسمه لأحمق بطي لسانه:

"قال حمزة: ولقي تابط شراً ذات يوم رجلاً من ثقيف يقال له أبو وهب، كان جباناً أهوجاً، وعليه حلّة جيدة، فقال أبو وهب لتابط شراً: بم تغلب الرجال يا ثابت، وأنت كما أرى دميم ضئيل؟ قال: باسمي، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل: أنا تابط شراً، فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت، فقال له الثقفي: أقط قال: أقط ، قال: فهل لك أن تبيعني اسمك؟ قال: نعم، فيم تباعه؟ قال: بهذه الحلّة وبكنيتك قال له: افعل، ففعل، وقال له تابط شراً: لك اسمي ولي كنيتك؟، وأخذ حلته وأعطاه طمرية، ثم انصرف، وقال في ذلك يخاطب زوجة الثقفي:

تابط شراً واكتنيت أباً وهب
فأين له صبري على معظم الخطيب؟
وأين له في كل فادحة قلبي؟^(٢)

ألا هل أتى الحسناء أن حليها
فهبه تسمى اسمي وسميت باسمه
وأين له بأس كباسي وسورتي

يحمل الخطاب الساخر في هذه القصة الطرافة والدعابة الباعثة على الارتياح النفسي ، ولكنه في الوقت ذاته يثير دلالات الاعتداد بالذات وقيمتها ، فالاسم عند تابط شراً - وهو

(١) الخطاب الروائي . ميخائيل باختين . ترجمة د. محمد برادة (رواية للنشر والتوزيع ، القاهرة ط ١ ،

٢٠٠٩م) ص ١٩٤.

(٢) الأغاني ٨٨/٢١.

الذي انسلخ من قبيلته - ليس له قيمة في ذاته ولا في شكل صاحبه ، وإنما الاسم تكمن قيمته في حامله وقدراته . لذلك تحمل شخصيات القصة التناقضات التالية

أبو وهب ← عليه حلة جيدة ← جبان أهوج

تأبط شرأ ← دميم ضئيل ← يغلب الرجال ويخلع قلوبهم

يثير تأبط شرأ بخطابه الساهر الحامل لهذه المتناقضات قيمة الذات النابعة من داخلها لا القيمة المكتسبة من إرث القبيلة ، ولا من الشكل الخارجي الموهجي بالغنى والترف ، فهو يخلعه قلوب الرجال باسمه الذي صنعه بفعله (تأبط شرأ) فكان اسما ولكنه في الأصل فعل . لذا كان في اسمه سر يدبث على الحركة التي توازي في الأصل سرعته وتنقله ، وكان فيه حكايات عن الأفاعي حيناً وعن الغول حيناً آخر . وقد توالدت هذه الحكايات من الاسم فصنعت له هالة من الخوف والرغبة.

لذا هو لا يخلع قلوب الرجال باسمه الذي أطلق عليه بعد مولده (ثابت) فهو يدل على الجمود ، وعلى عكس ما يتصف به من حركة وتنقل . ثم يبيع السائل الأحمق القول : (أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شرأ ، فيخلع قلبه) ولم يبعه صانع الاسم وصاحب القول ، كما أنه لم يبعه رياطة الجأش وقوة البأس والصبر على المكاره . وهذا ما يشهد به الخطاب الشعري الذي لخص فيه قصته ليكتمل المشهد القصصي ويبرز الخطاب الساخر فيه . ومن الخطاب السردى الساخر أيضاً ما يلي:

وقال المدائني، وحديثي أبو الهيثم قال: "اجتمع مالك بن الربيع وأبو حردبة وشظاظ يوماً، فقالوا: تعالوا نتحدث بأعجب ما عملناه في سرقتنا، فقال أبو حردبة: أعجب ما صنعت، وأعجب ما سرت أني صحبت رفقة فيها رجل على رحل، فأعجبني، فقلت لصاحبي، والله لأسرقن رحله، ثم لا رضيت أو أخذ عليه جعالة، فرمقته، حتى رأيته قد خفق برأسه، فأخذت بخطام جملة، فقدته، وعدلت به عن الطريق، حتى إذا صيرته في مكان لا يفاث فيه إن استغاث، أنخت البعير وصرعته، فأوثقت يده ورجله، وقدت الجملة، فغيبته ثم رجعت إلى الرفقة، وقد فقدوا صاحبهم، فهم يسترجعون، فقلت: مالك؟ فقالوا: صاحب لنا فقدناه، فقلت: أنا أعلم الناس بأثره، فجعلوا لي جعالة، فخرجت بهم أتبع الأثر حتى وقفوا عليه، فقالوا: مالك؟ قال: لا أدري، نعست، فانتبعت لخمسين فارساً قد أخذوني، فقاتلتهم، فغلبوني، قال أبو حردبة: فجعلت أضحك من كذبه، وأعطوني جعالتي، وذهبوا بصاحبهم. وأعجب ما سرت أنه مر بي رجل معه ناقّة وجمال، وهو على الناقة، فقلت: لأخذنهما جميعاً، فجعلت أعارضه وقد رأيته قد خفق برأسه، فدرت، فأخذت الجملة، فحللتها، وسقته، فغيبته في القصيم - وهو الموضع الذي كانوا يسرقون فيه - ثم انتبه، فالتفت، فلم ير جملة، فنزل وعقل رحلته، ومضى في طلب الجملة، ودرت فحللت عقال ناقته، وسقتها.

ثم قالوا لشظاظ: أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت في تصوصيتك، ورأيت فيها، فقال: نعم كان فلان (رجل من أهل البصرة) له بنت عم ذات مال كثير، وهو وليها، وكانت له نسوة، فأبت أن تتزوج، فحلف ألا يزوجه من أحد ضاراً لها، وكان يخطبها رجل غني من أهل البصرة، فحرصت عليه، وأبى الآخر أن يزوجه منه، ثم إن ولي الأمر حج، حتى إذا كان بالدو - على مرحلة من البصرة - حذاها، قريب من جبل يقال له سنام، وهو منزل الرفاق إذا صدرت أو وردت - مات الولي، فدفن

برابيت، وشيد على قبره، فتزوجت الرجل الذي كان يخطبها. قال شظاظ: وخرجت رفقة من البصرة معهم بز ومتاع، فتبصرتهم وما معهم وأتبعتهم حتى نزلوا، فلما ناموا بيّتهم، وأخذت من متاعهم. ثم إن القوم أخذوني، وضربوني ضرباً شديداً، وجردوني - قال: وذلك في ليلة قرة - وسلبوني كل قليل وكثير، فتركوني عرياناً، وتماوت لهم، وارتحل القوم، فقلت: كيف أصنع؟ ثم ذكرت قبر الرجل، فأتيته، فنزعت لوحه، ثم احتفرت فيه سرباً، فدخلت فيه، ثم سددت علي باللوح، وقلت: لعلّي الآن أدفا فاتبعهم. قال: ومَرَّ الرجل الذي تزوج بالمرأة في الرفقة، فمرَّ بالقبر الذي أنا فيه، فوقف عليه، وقال لرفيقه: والله لأنزلن إلى قبر فلان، حتى أنظر هل يحى الآن بضع فلانة؟ قال شظاظ: فعرفت صوته فقلعت اللوح، ثم خرجت عليه بالسيف من القبر، وقلت: بلى ورب الكعبة لأحمينها، فوقع والله على وجهه مغشياً عليه، لا يتحرك ولا يعقل. فسقط من يده خطام الراحلة، فأخذت وعهد الله بخطامها فجلست عليها، وعليها كل أداة وثياب ونقد كان معه، ثم وجهتها قصد مطلع الشمس هارياً من الناس، فنجوت بها، فكنت بعد ذلك أسمعهم يحدث الناس بالبصرة، ويحلف لهم أن الميت الذي كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره بسلبه وكفنه. فبقي يومه، ثم هرب منه، والناس يعجبون منه فعاقلهم يكذب، والأحمق منهم يصدقه، وأنا أعرف القصة، فأضحك منهم كالمتعجب."

" قالوا: فردنا، قال: فأنأ أزيدكم أعجب من هذا وأحمق من هذا؛ إنني لأمشي في الطريق أبتغي شيئاً أسرقه، قال: فلا والله ما وجدت شيئاً، قال: وكان هناك شجرة ينام من تحتها الركبان بمكان ليس فيه ظل غيرها، وإذا أنا برجل يسير على حمار له، فقلت له: أسمع؟ قال: نعم، قلت: إن المقيال الذي تريد أن تقيله يخسف بالدواب فيه، فاحذره، فلم يلتفت إلى قولي. قال: ورمقته، حتى إذا نام أقبلت على حماره، فاستنقته، حتى إذا برزت به، قطعت طرف ذنبه وأذنيه، وأخذت الحمار، فخبأته وأبصرته حين استيقظ من نومه، فقام يطلب الحمار، ويقفوا أثره، فيينا هو كذلك إذ نظر إلى طرف ذنبه وأذنيه، فقال: لعمري لقد حذرت لو نفعتي الحذر، واستمر هارياً خوف أن يخسف به، فأخذت جميع ما بقي من زحله فحملته على الحمار، واستمر فألحق بأهلي^(١).

ظهرت هذه الخطابات الساخرة في جلسة سمر تخللتها قصص تنذر بها صعاليك كانوا صحبة فهي تتلخص بن الريب ، وأبو حردبة مفضلين حياة الصلعة وما فيها من مشاق على الحياة في قاع المجتمع القبلي . وقد أقاموا بهذا السمر عالماً موازياً لعالم السمر عند العرب ، وما يتخلله من حديث عن شجاعته وبطولاتهم وكرمهم وأخلاقهم . يتحدث الصعاليك في سمرهم عن أعجب ما لقوه في سرقاتهم هازنين بمن لقوه من العرب .

(تعالوا نتحدث بأ'جب ما عملناه في سرقتنا)

(أعجب ما صنعت ، وأعجب ما سرقت)

(بأعجب ما أخذت في لصوصيتك)

فحمل خطابهم الساخر شحنة غضب تهدف إلى تفرغ المجتمع القبلي من بطولاته الوهمية وتكشف زيفه لذلك كان خطابهم الساخر هو خطاب الضد أو النقيض لخطاب القبيلة يسلبها أدوات اعتدادها الشجاعة وهو ما يتجلى في عبارات من قبل " فخرت بهم اتبع الأثر ، حتى وقفوا عليه ، فقالوا مالك؟ قال لا أدري نعست فانتبهت لخمسين فارساً قد أخذوني فقاتلتهم فغلبوني . قال أبو حردبة فجعلت أضحك من كذبه"

والمروعة " فحلف ألا يزوجه من أحد ضراراً لها"

والفطنة " فقام يطلب الحمار ، ويفقوا أثره ، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طرف ذنبه وأذنيه ، فقال : لعمرى لقد حذرت لو نفعني الحذر واستمر هارباً خوف أن يخسف به" .

إنه خطاب يسعى إلى إفراغ القبيلة من إرثها المعنوي ، فهو يروي عنهم ما يعريهم به ، ويكشف زيفهم ، نلمح ذلك في قصة عروة بن الورد مع الضعفاء والمساكين فقد قيل :

" كان عروة إذا أصابت الناس السنة ، وتركوا المريض والضعيف والكبير في ديارهم يجمع أشباه هؤلاء من عشيرته ثم يحفر الأبيات ويكنف الكنف ويكسيهم ويكسوهم ، فإذا قوي منهم واحد خرج به معه ، فأغار وكسب أصحابه الباقين ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهب السنة لحق كل إنسان بأهله وقسم لكل إنسان نصيبه من الغنم ، إن كانوا قد غنموا فربما عاد أحدهم غنياً ، فبذلك سمي عروة الصعاليك وكان صعلوكاً فقيراً مثلهم... (١)" .

تطرح القصة ضمن خطابها الساخر المندد مواقف ودلالات عدة:

أولاً : موقف القبيلة تجاه الضعفاء من أفرادها (وتركوا المريض والضعيف والكبير في ديارهم...) فهي تتخلى عنهم رغم ما كانوا قد قدموه لها.

ثانياً : موقف عروة مع الضعفاء وهو المنبوذ من القبيلة لضعف نسبه ، فقد جمعهم وتكفل بهم (يجمع أشباه هؤلاء من عشيرته ثم يحفر الأبيات ويكنف الكنف ويكسيهم...) فقام وهو فرد بما عجزت عنه القبيلة وهي جماعة . لذا تستبطن القصة خطاباً يسخر من التضامن القبلي ، لذلك طرح هؤلاء الصعاليك لقب القبيلة وجعلوا لهم من صنعهم ألقاباً أخرى خاصة بهم فتسمى عروة بن الورد عروة الصعاليك وثابت بن جابر تأبط شراً وسليك بن سلكه سليك المقانب ، وفي هذه الألقاب إثبات للذات وخلالها التي منحتها هذا اللقب في مجتمع قبلي ذابت فيه الذات وسقطت فيه الألقاب إلا لقب القبيلة ، يدل على ذلك الخبر الآتي:

(١) شرح ديوان الحماسة ١-٩.

" أن معدا تتابعت عليها سنوات جهد الناس فيها جهدا شديدا وكانت غطفان من أحسن معد فيها حالا وكان في بعض تلك السنين عروة بن عابس بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن سفيان بن هرم بن عوف بن غالب بن قطيعة ابن عيسى بن بغيض بن معد وكنيته أبو نجدة ويعرف بعروة الصعاليك غائبا فرجع مخفقا قد أهلك إبله وخيله ، وجاء إلى قومه بحال شديدة ، فإذا فخذ عروة أي قومه قصرة قد حظروا عليهم كنيفا لما أعوزتهم المكاسب وقالوا نموت فيها جوعا خير من أن تأكلنا الذئب فأتاهم عروة فتنزع عنهم كنيفهم وقال لهم أخرجوا وهذه قلوصي فقددوا لحمها وأحملوا أسلحتكم على هذه القلوص حتى أصيب لكم ما تعيشون به أو أموت ، فخرج ميامنا عن المدينة ، يريد أرض قضاعة وقصد بلقين فمر بمالك بن حمار بن مخاشن بن لأي بن شمع بن فزارة ، وقد أنفذ ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بفتيانك هؤلاء أرجع بهم تهلكهم ضيعة . قال إن الضيعة ما تأمرني به ، دعني التمس معاشا لي ولقومي أو أموت فالوت خير من الهزال فقال له مالك إن أطعنتي رجعت على حرسين وهما جبالان في أرض بني فزارة كما يقول عروة كيف أصنع بمن كنت عودته إذا جاءني وعرائني فقال : يعنرك إذا لم يكن عندك شيء ، فقال : ولكني لا أعذر نفسي بترك الطلب ... فأعطاه مالك بعيرا فقسمه بين أصحابه وسار حتى أتى أرض بني القين وهم بأرض التيه فهبط أرضا ذات لخافيق فرأى عليه آثارا فقال : هذه آثار من يرد هذا الماء ، فاكمنا فأخبر أن يكون قد جاءكم رزق في أرض بني القين ، وتلك عرا من الشجر العظام إذا أجذب الناس رعوها فعاشوا فيها فأقام أصحاب عروة يوما ، ثم ورد عليهم فصيل فقالوا : دعنا فلنأخذ فنعيش به أياما ، فقال : إنكم إذا تنفرون أهله إن همو برعي هذا الشجر وإن بعد هذا الفصيل إبلا ، فتركوه فندم قوم عروة ، فجعلوا يلومنه ، فوردت الإبل بعد خمس ، فوردت منها مائة معها فصلانها فيها ، فارس معه سلاحه وضعينته ، فلما وردت الإبل خرج إليه عروة فرماه بسهم في مرجع كتفيه ، فأخرجه من تندوته واستاق الإبل والضعينة حتى أتى قومه فأحياهم ... (١)

يظهر الخطاب السردى الساخر المندد في هذه القصة اختلال القوى وفقدان التوازن في القبيلة ، ليعاد بناء الأدوار فتحل القبيلة دور الفرد الضعيف ، ويحتل الفرد دور القبيلة لا في صورتها السلبية تجاه الأفراد ، وإنما في صورتها الإيجابية التي تكفل حق الحياة والعيش لأفرادها ، وذلك من خلال خطاب يعرض بدور القبيلة التي تخلت عن أفراد منها لضعف حالهم أو لضعف نسبهم ، كما حدث مع عروة بن الورد الذي أسقطته من قائمتها وأبعدته عن هرمها القبلي لضعف نسبه من جهة أمه مع أنه جزء من القبيلة من جهة أبيه ، فقد قيل (فخذ عروة أي قومه) . ويستمر تبادل الأدوار من خلال الخطاب الساخر المعروض بتحمل الفرد مسؤوليات القبيلة (لا أعذر نفسي بترك الطلب) وتكلفه بهم (وهذه قلوصي فقددوا لحمها).

(واحملوا أسلحتكم على هذه القلوص حتى أصيب لكم ما تعيشون به أو أموت)

(فأعطاه مالك بعيرا فقسمه بين أصحابه)

(واستاق الإبل والضعينة حتى أتى قومه فأحياهم ...)

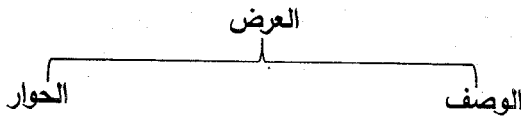
هذا الصنيع - الإنقاذ - وقد اختزل في شخص عروة هو في الأصل واجب القبيلة

تجاه أفرادها.

هكذا نلاحظ سيادة خطاب السرد في قصص الصعاليك وتنوعه ليشمل الخطاب الواقعي بأحداثه المرتبطة بشخصيات واقعية وبزمان ومكان محدد . ولعل سيادة حياة القلق والتوتر على حياتهم دفعتهم للتخيل والتهويل مما استدعى ظهور الخطاب الفنتازي كما ظهر الخطاب الساخر المنمد بالقبيلة ونظامها السلطوي.

العرض

تتداخل الخطابات في قصص الصعاليك وتتجاوز ليمنح كل منهما البناء القصصي مكونات وجوده. إذا كان خطاب السرد بأنواعه خطاباً سائداً على هذه القصص لارتباطه بالحركة التي تتفق وتتواءم مع حركة الصعاليك الدائبة وحياتهم غير المستقرة ، فإن تدوين هذه القصص كتاريخ تسجيلي منحها مقومات بنى العرض ، لذلك لم يخل من الوصف والحوار . وقد تضافرت هذه الخطابات وكمل بعضها بعضاً لتصنع بناءً قصصياً متكاملًا.



الوصف:

يتشكل الوصف من خلال اللغة كأي عنصر من عناصر مكونات بنية النص القصصي ، فيتكون من جمل وعبارات وتراكيب ودلالات تنصب جميعها في مقطع أو مقاطع متعددة . ويكتسب المقطع الوصفي أهميته من ترابطه ، وعلاقته بالمقاطع الإنشائية الأخرى . وغالباً ما يتدخل هذا المقطع مع السرد والحوار داخل البناء القصصي ليؤدي كل منها دوره في تشكيل المعنى.

وقد قام الوصف الخطابي على دعامتين أساسيتين هما:

- **وظيفة جمالية :** يقوم الوصف فيها بعمل تجميلي ، وهو وصف خالص لا ضرورة له بالنسبة لدلالة الحكى ، وإنما يشكل استراحة في وسط الأحداث السردية^(١) . وهذا النوع من الوصف لم يرد في قصص الصعاليك ولعل ذلك يعود إلى أن هذه القصص ما هي إلا تاريخ تسجيلي يصف حياة الصعاليك ويسرد أخبارهم المعتمدة على التنقل والسرعة والقتال.

(١) بنية النص السردى ص ٧٩.

• وظيفة توضيحية أو تفسيرية : يقوم الوصف فيها بوظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكيم^(١) . ويظهر هذا النوع من الوصف في قصص الصعاليك من خلال صور متعددة من ذلك قصة تأبط شرأ مع الغول قيل:

أخبرني الجرمي بن أبي العلاء قال : حدثنا أبو سعيد السكري قال : حدثنا ابن الأثرم ، عن أبيه وحدثنا محمد بن حبيب عن أبي عمرو قالأ : كان تأبط شرأ يعدو على رجله ، وكان فاتكا شديدا فبات ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد في قاع يقال له رحي بطنان ، فلقيته الغول فما زال يقابلها ليلته إلى أن أصبح وهي تطلبه ، قال : والغول سبع من سباع الجن وجعل يراوغها وهي تطلبه وتلتمس غرة منه فلا تقدر عليه إلى أن أصبح . فقال تأبط شرأ

بِمَا لَا قِيَتَ عِنْدَ رَحَى بَطْنَانَ
بَسْهَبٍ كَالْمَصْحِفَةِ مَحْصَحَانِ
أَخْوَسَ فُخْزِي لِي مَكَانِي
لَهَا كَفِي بِمَصْقُولِ يَمَانِي
صَرِيحًا إِلَيَّ بَيْنَ وَلَجِ جَرَانِ
مَكَائِكَ إِنِّي ثَبَتَ الْجَنَانِ
لِأَنْظَرُ مُصْبِحًا مَاذَا أَتَانِي
كَرَّاسِ الْهَرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَتُوبَ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شَنَّانِ^(٢)

إِلَا مَنْ مَبْلَغُ فِتْيَانٍ فَهَمَّ
بِأَنِّي قَدْ لَقِيْتُ الْغُولَ تَهْوِي
فَقُلْتُ لَهَا كِلَانًا نَضَوَا بَيْنَ
فَشُدَّتْ لَهَا شِدَّةَ نَحْوِي فَاهْوِي
فَاضْرِبْهَا بِفَلَا دَهَشَ فَخَرَّتْ
فَقَالَتْ عَدَّ فَقُلْتُ لَهَا رَوَيْدَا
فَلَمَّ أَنْفُكَ مَتَوَّعًا عَلَيْهَا
إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسِ قَبِيحِ
وَسَاقَا مُخْدَجٍ وَشَوَاةٍ كَلْبِ

يرتكز النص على بنى متداخلة هي مزيج من السرد والوصف والحوار يكمل كل منهما الآخر في إيصال المعنى . وإذا كان النص قد بدأ بالسرد " كان تأبط شرأ ... " فإنه ينتهي بالوصف لكن في قالب شعري

إِذَا عَيْنَانِ فِي رَأْسِ قَبِيحِ
وَسَاقَا مُخْدَجٍ وَشَوَاةٍ كَلْبِ
كَرَّاسِ الْهَرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ
وَتُوبَ مِنْ عَبَاءٍ أَوْ شَنَّانِ

وقد ساعد حضور السرد على تفعيل الزمن بمستوياته الماضي والمضارع . وقد انعكس هذا الامتداد الزمني على الصفات لتصبح ممتدة بين الزمنيين فعبارة " كان تأبط شرأ يعدو..." تتوسط ما بين الفعل الماضي والمضارع في اسم يحمل معنى الفعل . تأبط شرأ) ليكسر السرد دوره في تحريك الزمن الذي لا يلبث أن يتوقف ليفسح المجال للوصف من خلال شبه الجملة (على رجله) وهي تبدو أقرب للزيادة في الكلام إذا أن كل من يعدو لابد وأن يعدو على رجله ، ولكن التركيز عليها ما هو إلا تركيز على ميزة عرفت بها هذه الشخصية وكأنه لا يذكر إلا بمقدرته التي قيل عنها " إن تأبط شرأ كان أعدى ذي رجلين ، وذي ساقين وذي عينين..."^(٣)

(١) السابق

(٢) الأغاني ٩٠/٢١-٩١.

(٣) السابق ٨٧/٢١.

ويظل الإلحاح على المزاج في القصة بين السرد والوصف (كان فاتكا شديدا) ليبدل السرد من خلال زمنه الماضي على التسليم بحمله للوصف بعده ممهدا بهذا الوصف للصراع الذي يتطلب الفتك والشدة ، كما أن هذا الوصف كان سببا لجملته السرد التالية " فبات ليلة..." فتحمل بنية السرد (بات) دلالة السكون وكأنما بات لأنه مطمئن لقوته واثق من نفسه ، وبذلك تظهر بنية السرد مقابلة ومناقضة لبنية الوصف " ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد..." فالسرد يحمل تفعيلا ولكنه سلب هذا التفعيل بفعل دلالة البياض على السكون والهدوء ، ولكن الحركة والتفعيل ظهرتنا من خلال البرق والرعد وما يحملانه من ضجيج وصخب في مكان مظلم يوحي بالشدّة والقوة " رعى بطن" وبذلك تتظاهر في الوصف الحواس البصرية والسمعية مع المعنى الدلالي لنقل صورة مرعبة مخيفة تشكل إطارا زمانيا للحدث الرئيسي في القصة وهو الصراع مع الغول.

وعلى الرغم من دلالة لفظ الغول على الاغتيال والموت إلا أن التعريف زاد في التهويل منه من خلال جملة الوصف " والغول سبع من سباع الجن" . ومع ذلك كله ينتهي صراع تأبط شراً معها بانتصاره عليها بعد تكرار محاولتها النيل منه " لقيته الغول لقيته الغول هي تطلبه... هي تلمس غرة منه..." ولكن النتيجة " لا تقدر عليه ..." وإذا به يقدر عليها لتمتعه بالصفات السابقة.

يضعنا صراع تأبط شراً مع الغول أمام بُنيتين وقوتين . البنية الأولى سردية يظهر فيها تأبط شراً في دور المفعول للحدث" مازال يقاتلها ... جعل يراوغها ... ومن خلال هذه البنية كان العمل على تحريك النص رغم الجنوح للمسالمة . أما البنية الثانية فهي وصفية وفيها يظهر الغول من خلال محاولتها المستمرة لنيل من تأبط شراً" هي تطلبه ... جعل يراوغها... هي تطلبه..." إلا أن ظهور هذه المحاولات تسلب بنية الوصف القدرة على تفعيل الحدث . ولعل جنوح تأبط شراً للمسالمة رغم إصرار الغول على النيل منه كان نابعاً من رغبة تنبأها دفعته إلى تلمس علاقة ما بهذا الغول من خلال الوصف فهو يقول:

" كلانا نضواين ... أخو سفر..." ثم من خلال الحوار ، " فقلت ... فقالت" . وكانت هذه الرغبة قد ظهرت عند غيره من الصعاليك . كقول الشنفرى:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَأِنِّي إِلَى قَوْمِ سِوَاكُم لَأَمِينٌ
ثم قوله :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدَ عَمَلَسْ وَأَرْقُطُ زُهْلُولَ وَعَرْفَاءَ جِيَالِ

هُم الزهط لا مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ شائع
لَذِيهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَّلُ^(١)
ذلك أنهم قد وجدوا في هذا المجتمع الحيواني بديلاً عن المجتمع القبلي الذي طردوا
منه وخلعوا . وهكذا نلاحظ أن الوصف كان مكملًا للمعنى ملتجئًا مع السرد في بناء النص
القصصي

وإذا كان الوصف في قصة تأبط شرا قد ركز على إبراز ما تميز به من عدو وقوة فإنه
في قصة عروة بن الورد يركز على شيء آخر .

" كان عروة بن الورد مع عشيرته في شتاء شديد قد سعى عليهم شتاءه كله وكنف عليهم
وكان أول ما أصاب لهم ناقتان دهماوان، فنحر أحدهما وحمل متاعهم وضعفاهم على الأخرى،
فجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان، وكان بين النقدة والريذة يقال له ماوان نزل بهم عليه ثم إن
الله قبض له رجلاً صاحب مائة من الإبل قد فر بها من عقوق أهله وذلك أول ما ألين الناس واحتلبوا
فقتله وأخذ إبله وامراته، وكانت حسناء، فأتى بالإبل الكنيف فجعل يحلبها، ثم يحملهم عليها، حتى
إذا دنوا من بلادهم وعشائهم أقبل يقسمها بينهم وأخذ مثل نصيب أحدهم، واستخلص المرأة لنفسه
فقالوا: لا واللات لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً فمن شاء أخذها من سهمه، فجعل بهم أن يحمل
عليهم ليقتلهم وينتزع ما معهم ثم يتذكر صنيعته بهم، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع،
ففكر طويلاً ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلته يحمل عليها امراته حتى يلحق بأهله فأبوا
إلا أن يجعل الراحلة لهم فانتدب رجل منهم فجعل الراحلة من نصيبه وأفقرها عروة أي منحه إياها
منيحة، إذا استغنى عنها ردها^(٢) .

تتضافر في هذا الخطاب القصصي بنى النص السردية والوصفية لنقل وقائع القصة
التي ترتكز على فكرة التكافل الاجتماعي التي كان يتزعمها عروة بن الورد حتى اشتق منها له
اسم فعرف بعروة الصعاليك . وإذا كان السرد قد عمل على تفعيل الحدث في القصة وتحريك
الزمن فيها عبر نسق زمني يهدف إلى تطور الأحداث وتسلسلها فإن الوصف تولى تأخير
القصة زمانياً ممهداً للحدث ومفسراً له . فقد تم تحديد الزمان بقوله : " شتاء شديد ليترك هذا
الزمان أثره على بيئة القصة ويكون مدعاة للقحط والجذب وحاجة الناس وعوزهم، وسبباً
لظهور السطو والفتك . " فصاحب النوق قد فر من عقوق أهله " . ثم إنه كان مدعاة لظهور
التكافل الذي تزعمه عروة بن الورد وبرز فيه . كما حدد المكان " ما بين النقدة والريذة ماء
يقال له ماوان نزل بهم عليه... " لتظهر من بنية الوصف فكرة التربص وتراخي الزمن انتظاراً
لحل الأزمة حلاً قديراً . لذلك كان بنية وصفية " ثم إن الله قبض له رجلاً صاحب مائة من
الإبل... " ليحمل النص بعد ذلك تنقلاً بين بنيتين إحداها بنية سردية يظهر فيها تفعيل فكرة
العتاء والتكافل وما فيها من تفعيل للحدث ويمثلها عروة بن الورد .

(١) ديوانا عروة والسؤال ص ٥ .

(٢) ديوان الحماسة ٩/١ .

- أتى بالإبل .
- جعل يحلبها .
- يحملهم عليها .
- أقبل يقسمها بينهم .
- أخذ مثل نصيب أحدهم .

وتتقاطع هذه البنية السردية مع بنية وصفية يظهر فيها الجحود والتخاذل . وفيها تعطيل للزمن والفعل معاً بما تحمله من رفض (لا واللات لا نرضى...) هذه البنية الوصفية أحدثت صرعاً داخلياً في نفس عروة بين الواجب الذي فرضه على نفسه وصنعهم الذي يكشف أطماعهم لتحضر بنية السرد حاملة هذا الصراع ومتناقضة مع موقفه السابق .

- يحمل عليهم .
- يقتلهم .
- يتنزع ما معهم .
- يتذكر صنيعه .
- إن فعل أفسد ما كان صنع .

وينتهي الصراع في بنية السرد إلى تمسك عروة بأيدولوجيته التي فرضها على نفسه (أجابهم) وهكذا كانت بنية الوصف بنية أساسية في الخطاب القصصي حتى أنها كادت تغير مجرى القصة لولا بنية الحوار الداخلي التي دفعته إلى الفعل الإيجابي الذي انتهت عليه صيغ الخطاب .

الحوار:

يضمن الحوار في النص القصصي إمكانات الجدل والسرد والتحاور ، كما يشيد مسارات السرد ويشخص المحكيات ، ناهضاً بوظيفة التواصل بين الشخوص مفصلاً عن رؤاها ومواقفها . كما يمنحها الواقعية يمنح المخاطب إمكانية معايشة الحدث والمكان والزمان وذلك بنقله إلى الزمن الذي كانت فيه الأحداث .

ويحوز الحوار وظيفيتين تتضافران معاً لبناء الخطاب هما:

- وظيفة أيدولوجية تتمثل في دفاع المتكلم عن موقف معين مفنداً أو مؤكداً أو مستبقاً للأجوبة .

. وظيفة أخرى تتداخل مع الوظيفة السابقة وتتجلى في قدرة الحوار على إضفاء الطابع الشخصي على مرسل الخطاب وتؤكد الإيهام بواقعية الكلام^(١).

وفي قصص الصعاليك تقوم هاتانوظيفتان بنقل أفكار الصعاليك ورؤاهم ودوافعهم ونظرتهم إلى المجتمع من حولهم وسلوكهم معه . ويظهر الحوار على شكل حوار داخلي مع الذات وحوار خارجي مع الآخر .

الحوار الداخلي:

يظهر الحوار الداخلي في حديث للنفس تنشطر فيه الذات على نفسها لتخلق منها ذاتا تناقشها وتنفذ فكرها وآراءها ودوافعها وتنتقل أيديولوجيتها التي تؤمن بها . ومن ذلك ما ظهر في قصة عروة بن الورد^(٢) ، فقد نقل الحوار الداخلي ترده بين الواجب الذي فرضه على نفسه وهو التكفل بالضعفاء - وهي الأيدولوجية التي ارتضاها لنفسه - الرد على صنيعهم معه وطمعهم فيه.

" فجعل بهم أن يحمل عليهم ليقتلهم ويتنزع ما معهم ثم يتذكر صنيعه بهم ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان صنع ففكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل..."^(٣).

فهذا الحوار الداخلي يكشف عن الصراع الذي قام في نفس عروة بن الورد وعن مدى قناعته بأفكاره ومعتقداته التي آمن بها وفرضها على نفسه حتى أصبحت واجبا عليه وهو التكفل بالضعفاء . وفي ذلك إشارة إلى الواجب الذي أسقطته القبيلة عن كاهلها بإسقاط الضعفاء والمعوزين من قائمتها.

ومن الحوار الداخلي ما يظهر على شكل مناجاة ، من ذلك ما ورد عن السليك بن السلعة فقد قيل :

" وقال المفضل في روايته : وكان السليك من أشد رجال العرب وأنكرهم وأشعرهم . وكانت العرب تدعوه سليك المقانِب وكان أدل الناس بالأرض، وأعلمهم بمسالكها، وأشدهم عدواً على رجله لا تعلق به الخيل . وكان يقول: اللهم إنك تهين ما شئت لما شئت، اللهم إني

(١) جمالية النص الروائي ٩٤-٩٥.

(٢) انظر ص من البحث

(٣) السابق

لو كنت ضعيفاً كنت عبداً، ولو كنت امرأة كنت أمة ، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة^(١).

فقد مهد المفضل الضبي لدعاء السليك ومناجاته لربه بتعريف له وأبرز قوته وسرعته وبراعته ومعرفته بالأماكن والمسالك ، ودلل على ذلك بما اشتهر به لدى العرب ليحمل على التسليم بقوة السليك واعتداده بذاته مما يدفع عنه شبهة الضعف التي قد تفهم مع الحوار والمناجاة بعد أن استسلمت هذه القوة إلى حالة هدوء ومكاشفة مع الله والذات . ذاكراً أسباب انتهاجه لنهج الصعاليك وتتمثل هذه الأسباب في ظلم المجتمع للضعيف والمرأة. ولقد كشفت هذه المناجاة عن أيولوجية السليك وقناعاته وأفكاره كما كشفت عن واقعية النفس البشرية واستسلامها إلى خالقها في حالة ضعفها مهما بلغت قوتها.

الحوار الخارجي:

يظهر تعدد الشخصيات في الحوار الخارجي فقد يكون بين اثنين أو أكثر . ويساعد هذا الحوار على الكشف عن الشخصيات ونفسياتها ويربطها بالواقع ، كما يمنح المخاطب معاشة الحدث وتدرجه . ومن ذلك ما ورد في حوال مع تأبط شراً فقد قيل:

" أخبرنا الحسين بن يحيى : قال قرأت على حماد : وحدثك أبوك عن حمزة بن عتبة اللهبي : قال : قيل لتأبط شراً : هذه الرجال غلبتها ، فكيف لا تنهشك الحيات في سراك؟ فقال : إني لأسري البردين . يعني أول الليل ، لأنها تمور خارجة من حجرتها ، وآخر الليل تمور مقبلة إليها"^(٢).

يدور الحوار بين طرفين الطرف الأول وهو مجهول "قيل" ، يحمل مع ذلك استفساراً يدور في ذهن جماعي عن هذه القوة التي تجاوز بها تأبط شراً التغلب على البشر إلى التغلب على الأفاعي والحيات لتأتي الإجابة من قبل الطرف الثاني تأبط شراً على السؤال المطروح . فيدل الجواب على ما تميز به تأبط شراً ، إلى جانب القوة ، من معرفة بالأوقات التي تجنبه الخطر فيتجاوزها . فيكشف الجواب عن دهاء ومعرفة إلى جانب القوة ، كما يكشف عن طبيعة المناطق الوعرة وكثرة أخطارها.

(١) الأغاني ٢٠/٤٦٤.

(٢) السابق ٨٨/٢١.

ويظهر الحوار أيضا في قصة أبي خراش وزوجته مع بني الدايل^(١)، وقد كانت بينه وبينهم ثارات برز الحوار في القصة عبر شخصيات متعددة ، ساعد صوت الراوي على التنسيق بينها بينما وكان ذلك على النحو التالي:

الحوار بين أبي خراش وزوجته أم خراش:

قال لزوجته أم خراش : ويحك إني أريد مكة لبعض الحاجة وإنك من أفك النساء وإن بني الدايل يطلبونني بتراث فأياك وأن تذكريني لأحد من أهل مكة حتى تصدر منها!.

قال : معاذ الله أن أذكرك لأهل مكة وأنا أعرف السبب.

الحوار بين فتیان من بني الدايل:

قال أحدهما لصاحبه : أم خراش ورب الكعبة؟ وإنها لمن أفك النساء وإن كان أبو خراش معها فستدلنا عليه.

الحوار بين أم خراش وفتیان من بني الدايل.

قالت: من أنتما بأبي أنتما !؟

فقالا: رجلان من أهلك من هذيل.

فقالت: بأبي أنتما فإن أبا خراش معي ولا تذكره لأحد، ونحن رائحون العشية.

الحوار بين أبي خراش وزوجته أم خراش

قال لها: قتلتنني. ورب الكعبة لمن ذكرتنني؟

قالت: ما ذكرتك لأحد إلا لفتيين من هذيل.

قال لها : والله ما هما من هذيل؟ ولكنهما من بني الدايل، وقد جلسا لي وجمعا علي

من قومهم .

يقطع الحوارات السابقة صوت الراوي لغير شخصيات المتحاورين ويضيف ما يخدم

البناء القصصي الذي ينتهي بالحوار بين أم خراش و والد أبي خراش وجاء فيه:

(١) انظر النص كاملا في الأغاني ٢١/٣١٢-٣١٣.

نادت : لا إن أبا خراش قد قتل.

قام أبوه وقال : ويحك ما كانت قصته؟

فقالت : إن بني الدايل عرضوا له الساعة في العقبة.

قال : فما رأيت ، أو ما سمعت؟

قالت : سمعته يقولون يا مخلد أخذاً أخذاً

قال : ثم سمعت ماذا؟

قالت : ثم سمعته يقولون ضرباً ضرباً.

قال : ثم سمعت ماذا؟

قالت : سمعته يقولون رميا رميا.

قال : فإن كنت سمعت رميا رميا فقد أفلت^(١).

انتهى النص القصصي بنجاة أبي خراش مثل ما استنتج والده . كما نلاحظ أن الحوار يحمل المخاطب على معايشة الحدث وتتبعه عبر شخصياته وما تتسم به مكوناً فكرة عنهم تتمثل في ما يلي:

- عدم نباهة أم خراش وإفشائها لسر زوجها رغم تحذيره.
 - مراوغة بني الدايل وخبثهم وإفشائها لسر زوجها رغم تحذيره.
 - قوة أبي خراش وسرعته التي مكنته من الفرار من المتربصين به.
 - سعة معرفة والد أبي خراش بدلالات الألفاظ واستخدامها.
- وهكذا أسهم الحوار في نقل أحداث القصة عبر أصوات متعددة.

(١) جماليات المكان في الرواية العربية . شاكرو النابلسي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١

الخاتمة

جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد ومبحثين وتناولت المقدمة أسباب اختيار الموضوع وصعوباته ومنهجه . وتناول التمهيد تأصيل الخطاب في الثقافة العربية وتحديد تعريف للخطاب تتبناه الدراسة وتسير عليه ، كما تناول حياة الصعاليك ونشأتهم ومصادر قصصهم المتناثرة في بطون أمهات الكتب ولقد أبرز التمهيد النتائج التالية:

- اختلاف مفهوم الصعلكة وأيدلوجية الصعاليك في العصر الجاهلي وصدر الإسلام وبني أمية - موضوع الدراسة - عن الصعلكة والصعاليك في العصور التالية حتى إنها اتخذت أسماء مثل (العيارين) . واختلفت أيدلوجيتهم لاختلاف الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- تحقيق مخرجات الخطاب القصصي في قصص الصعاليك بوجود مخاطب ومخاطب ومادة خطاب (المادة القصصية) .
- ارتباط هذه القصص بزمان ومكان محددين.
- ارتباط هذه القصص بأحداث تاريخية واجتماعية ونفسية.
- تميز هذه القصص بالانغلاق (أي لكل قصة بداية ونهاية)
- تمثيل الخطاب في قصص الصعاليك لخطاب الثورة والتمرد على الخطاب السلطوي الذي تتبناه القبيلة المحتمية بقوة الجماعة المبنية على سلامة الدم واللون والعرق.

وتمت الدراسة في مبحثين على النحو التالي:

الفصل الأول صيغ الخطاب : يقع هذا الفصل في مبحثين.

- السرد .
- العرض .

أما المبحث الأول (السرد) فيقع في محورين:

المحور الأول هو الراوي

وقد أسفرت دراسة الراوي عن النتائج التالية:

- اعتماد هذه القصص قبل مرحلة التدوين على الرواية الشفوية (وهم رواة من خارج النص القصصي)
- إسهام الرواية الشفوية في تعدد الرواة واختلاف مروياتهم.

تشارك الرواة من الخارج والداخل في تحقيق الوظائف التالية:

- وظيفة الحكى والإخبار : بهدف توصيل الخبر ونقله ، وهي الوظيفة الرئيسة للراوي .
- وظيفة التوثيق : وقد ساعدت على إضفاء الواقعية على الخطاب ، وتقبل المخاطب له . وظهرت هذه الوظيفة في قصص الصعاليك من خلال المحافظة على السند وعنقته ، وتقصي الخبر ، وتتبع الروايات المختلفة له ، والاستشهاد بالشعر والمثل وتحديد مكان الحدث وزمنه .
- وظيفة الشرح والتفسير والتعليق : تنقل فكر الراوي ومعرفته إلى جانب فكر شخصيات القصة وتختلف هذه الوظيفة باختلاف الرواة ومدى تدخلهم في البناء القصصي .

وتناول الشرح والتعليق والتفسير التعريف بالشخصية ، وتحديد ها ، ووصف هيتها وتحديد الزمن والمكان ، والتأكيد على بعض الأحداث لإبرازها .

المحور الثاني : أنواع السرد : وقد أسفرت دراسة السرد وأنوعه عن النتائج التالية:

- ارتباط السرد بالراوي .
- سيادة خطاب السرد على قصص الصعاليك لاعتماد الراوي على الاختزال والإجمال ، فيعكس بذلك حياة الصعاليك القائمة على السرعة والتنقل .
- تداخل خطاب السرد في قصص الصعاليك ليشمل :
 - الأحداث المرتبطة بشخصيات واقعية .
 - وقعت الأحداث في زمن ومكان محدد .
 - وجود دلالة مباشرة لرواية القصة مع احتمالية عدم وقوعها .
 - تناول القصة عوالم ظاهرة مدركة بالحواس .

وقد يفقد الخطاب الواقعي شرط الواقعية فيتحول إلى خطاب فنتازي ، كما قد يفقد العلاقة المباشرة الواضحة بين الراوي المروي لهم فيتحوّل إلى خطاب ساخر .

خطاب السرد الفنتازي (الغرائبي والعجائبي) وقد ساعدت حياة الصعاليك وما فيها من غربة وعزلة على ظهور الخطاب الغرائبي المثير للخوف والتوتر والقلق ؛ لتناوله قصص الجن والغول والعالم الغيبي ، على حين عكس الخطاب العجائبي حاجة الصعاليك لحياة الجماعة الآمنة المستقرة ولكنه كان أقل حضوراً من الخطاب الغرائبي ، ولعل اعتداد الصعلوك بنفسه كان وراء هذه القلة

خطاب السرد الساخر وقد وظف لمواجهة الحياة الدرامية التي يعيشها الصعاليك فيكشف به عن علاقات متوترة وشروخاً اجتماعية ونفسية عميقة تربط الصعاليك بالمجتمع من حولهم.

المبحث الثاني : العرض

وهو يرتبط بالشخصيات أكثر من ارتباطه بالراوي ، وتمت دراسته عبر محورين هما:

الوصف : وقد أظهرت دراسته ما يلي:

- قام الوصف في قصص الصعاليك بوظيفة تتولى التوضيح والتفسير وهي وظيفة دالة رمزية .
- خلو خطاب الوصف في قصص الصعاليك من الوظيفة الجمالية ، ولعل هذا يعود لكونها دُونت على إنها تاريخ تسجيلي بهدف نقل الخبر وحفظه وتوضيحه وتفسيره لا تجميله.

الحوار : وقد أظهرت دراسته ما يلي:-

- بروز الحوار من خلال الشخصيات ويتمثل في:
 - حوار داخلي مع الذات وهو يظهر في حديث النفس والصراع الداخلي والمناجاة وقد كان لحياة العزلة والغربة أثر في حضوره.
 - حوار خارجي يقوم بين شخصيات القصة.
- قيام الحوار في قصص الصعاليك بوظيفتين هما:
 - وظيفة التواصل بين الشخوص ، وإضفاء الطابع الشخصي عليها ومنحها الواقعية والمعايشة للحدث.
 - وظيفة أيولوجية تكشف عن إيمان الصعاليك بأفكارهم ومعتقداتهم ومبادئهم وتمسكهم بها ودفاعهم عنها.

هذا ما انتهت إليه الدراسة وبالله التوفيق والسداد

فهرس الموضوعات

٢ مقدمة:
٤	تأصيل الخطاب في الثقافة العربية:.....
٥	مفهوم الخطاب عن بعض العرب المحدثين:.....
٦	واقع الصعاليك وقصصهم.....
١١	مصادر قصص الصعاليك.....
١٤	الخطاب عند الصعاليك.....
١٥	صيغ الخطاب:.....
١٥	مفهوم السرد.....
١٦	السارد أو الراوي.....
١٨	وظيفة الراوي في قصص الصعاليك.....
١٨	(١) وظيفة الحكي والإخبار:.....
١٩	(٢) وظيفة التوثيق:.....
١٩	الإسناد:.....
٢٠	تقصي الخبر وتتبع الروايات:.....
٢٢	الاستشهاد:.....
٢٣	تحديد المكان:.....
٢٤	(٣) وظيفة الشرح والتعليق والتفسير.....
٢٤	التعريف بالشخصية.....
٢٤	تحديد شخصيات القصة.....
٢٥	وصف الشخصية من الجانب المادي أو المعنوي.....
٢٥	وصف الهيئة.....
٢٥	تحديد الزمن والمكان.....
٢٦	التأكيد ودفع الشك.....
٢٦	أنواع الخطاب السردى:.....
٢٨	أنواع الخطاب السردى واشتراطاتها:.....
٢٨	الخطاب الواقعي :.....
٢٩	الخطاب الفنتازي.....
٣٤	الخطاب الساخر:.....

العرض	٣٩
الوصف:	٣٩
وظيفة جمالية	٣٩
وظيفة توضيحية أو تفسيرية	٤٠
الحوار:	٤٣
الحوار الداخلي:	٤٤
الحوار الخارجي:	٤٥
الخاتمة	٤٨
فهرس الموضوعات	٥٢